سلسلة التواريخ والرحلات

١

القول الحق في بيروت ودمشق

رحلة الى سورية ولبنان في اواخر القرن التاسع عشر تتضمن وصف بيروت ومعاهدها واسواقها ونهضتها العلمية ودمشق وعوائدها وابنيتها وأخلاق اهلها وهيئاتها الاجتماعية

تأليف
عبد الرحمن بك سامي

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص.ب. : ٦٥٨٥

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

مقـــدمة

الحمد لله قبل كل شيء . وبعدُ فأقول إنني في أثناء الصيف الماضي بعد منحي الرخصة من الحكومة السنية قصدتُ الأقطار السورية حسب مشورة الأطباء لتغيير الهواء وترويح النفس اثر ما ألمّ بي من انحراف الصحة، فجلتُ في بيروت ودمشق ولبنان أياماً عديدة سررتُ فيها كثيراً من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وجودة المكان ولطف السكان . وقد عنيتُ بكتابة هذه الأسطر الوجيزة وهي ملخص رحلتي في تلك الديار لعلّها تكون مفيدة لإخواننا المصريين الذين يتوجهون إليها لتغيير الهواء وزيارة الأماكن الشهيرة وبالله التوفيق .

المؤلف

بيروت

بارحنا دار السعادة العلية يوم الخميس في ١٩ يونيو سنة ١٨٩٠ الساعة الخامسة بعد الظهر فركبنا الباخرة النمسوية من قومبانية (لويد) . وبعد سفر ثمانية أيام ، مررنا فيها على جملة جهات ، وصلنا إلى بيروت صباح الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٨٩٠ . وما لبثت الباخرة أن رست بنا حتى تصاعد إليها البحرية (الملاحون) فوجدناهم ألطف طبعاً من غيرهم ، وذوي حمية وشهامة يستغرب وجودها بين أرباب هذه المهنة . ومما زادني عجباً بهم هو عدم احتمالهم الاهانة ، ونفورهم منها ، وانقيادهم باللطف ، فإنهم يتحمسون بأقل كلمة لطف أو تنشيط تقال لهم ، وبخلاف ذلك ، لو أهانهم أحد ما فإنه يعرّض نفسه لما يسوءه . وكانوا يجذفون بالركاب وعلامات القوّة تسري فيهم .

وبما أنه لم يسبق لي معرفة في هذه الديار ، كنت مستغرباً وشعرتُ في نفسي بالوحشة في الغربة ، ولكن حالما رست بنا الباخرة ، قابلنا كلٌّ من حضرات الخواجه يوسف الصوراتي من تجار بيروت المعتبرين ، وأحمد أفندي محيي الدين ، نجل حضرة عزتلو أفندم محيي الدين بك حمادة رئيس بلدية بيروت ، واعتذر عن حضرة والده بأنه لم يستطع مقابلتنا في البحر

لما يصيبهُ من الدوار ، وانه ينتظرنا على الرصيف . وجاء حضرة درويش أفندي الغزاوي ، من معتبري تجار بيروت أيضاً ، وكان سابقاً وكيلاً للبوستة الخديوية ، وأمين أفندي البربير ، وأحمد أفندي زعطوط ، وكلاهما من أعيان بيروت ، وكلٌّ منهم قد أحضر زورقاً خصوصياً لنزولنا فيه . فشكرنا حضراتهم على ألطافهم وإكرامهم . وزال ما اعتراني من وحشة الغربة بلقياهم . ثم نزلنا جميعاً بزورق نجل عزتلو محيي الدين بك حمادة . وقد استغربت ما شاهدتهُ في حضراتهم من اللطف والإكرام ، على حين لم تسبق لي معرفة شخصية بهم ، ولكني علمت أنهُ فضلاً عن المزايا الحميدة التي اختصوا بهـا ، حرّر لهم تلغرافاً حضرة الهمام الفـاضل محمد أسعد بك طليمات من تجار معتبري الاسكندرية ، لما علم بقيامنا من دار الخلافة إلى سورية ، وذلك بناءً على المخابرات التي كانت بيننا مدة إقامتنا هناك. وحالما وصلنا إلى الرصيف وجدنا بانتظارنا جمهوراً غفيراً من الأعيان يتقدمهم حضرة الفاضل عزتلو محيي الدين بك حمادة ، المصري الأصل ، فاحتفلوا بنا أي احتفال . ووجدنا الرصيف غاصّاً بالناس والأمتعة . فسلمنا الباسبورتات إلى البوليس المكلف بذلك وسلمنا على حضرات الملتقين وشكرنا محبتهم ولطفهم . ثم ركبنا العربة إلى منزل حضرة البك المشار إليه . ولا يسعني إلاّ القول ان ميناء بيروت غير مرتبة (ولعلها تصلح عند إتمام المرفإ الجديد) . ولاحظت أنه لا بد للمسافر الغريب الخالي من المعارف أن يتعب قليلاً إذا لم يتيسر له من يساعدهُ . وبلغني أن بعض صغار المستخدمين الذين يأخذون أجراً قليلا يضطرون أحياناً إلى ثقب أكفهم لقبول بعض دريهمات من المسافرين ، يحسبون ذلك نوعاً من الحلوان ، وهذا غير مثبت عندي . وعلمت أن حالتهم أحسن من قبل وخصوصاً من يوم تبوّأ عرش الخلافة جلالة سلطاننا الأعظم .

وعلمت ان أغلب الكتب والجرائد التي من خارج سورية يمنع دخولها

قبل تصديق مجلس المعارف في بيروت عليها ، وذلك إذا لم تكن مطبوعة برخصة سنية .

جولة في بيروت

وبعد ما استرحنا قليلاً ذهبنا مع حضرة محيي الدين باك حمادة وجلنا في المدينة فراقني منظرها لأنها مبنية على حدف تلٍّ يُرى البحر من أكثر بيوتها الجميلة الهندسة ، وأكثرها مسقوفٌ بالآجر الأحمر المعروف بالقرميد بشكل جمالون . وهي كما وصفها حضرة صاحب اللطائف ، في المجلد السابع من المقتطف ، حيث قال : بيروت زهرة سورية ، ومركز علومها ، وفرضة الشام ، ومصب حاصلاتها . وهي في طول شرقي ٢٨َ ، ٣٥ْ وعرض شمالي ٥٠ْ ، ٣٣َ . وكانت قديماً مدينة الفقه ، واشتهرت بمدرستها . وهي الآن مدينة العلم والطب . ويُعرف علو منزلتها من كثرة مدارسها ، وقيمة أعمالها الخيرية من مستشفياتها ، وهيئتها الاجتماعية من جمعياتها ، وعظم فوائدها من جرائدها ومطبوعاتها ، ففيها كثيرٌ من الصيدليات ، وخمسة مستشفيات ، وأربعة عشر معملاً . وجمعياتها الخيرية نحو الثلاثين وسنأتي على شرح ما تقدم .

وقد أعجبني فيها شوارعها الواسعة على النسق الأوربي ، ونور الغاز ، وجمال أبنيتها وتنظيمها وكبرها ، وكثرة الجنائن فيها . فإن كل بيت أمامهُ جنينة وبيوتها الجديدة غير ملتصق بعضها ببعض ، فهي بذلك أشبه بحي الإسماعيلية في القاهرة . مع أن بيروت القديمة ، وبعرف أهاليها (داخل الصور) لا تزال على الطراز القديم من جهة ضيق الشوارع ، ولكن مساحتها صغيرة لا تزيد عن كيلو مترين مربعين . وهي واقعة في نصف المدينة الحديثة . والواقف في بيروت يرى نفسه محاطاً بجبال لبنان الشامخة التي يكللها الثلج بضعة أشهر في السنة ، ويرى أمامه البحر كبساطٍ أخضر

متسع وحوله الأبنية الجميلة بالحجر الرملي وهو حجرٌ هيئته جميلة . ويوجد قسم في المدينة مبني على لسان داخل في البحر يقال له رأس بيروت . وهو آخر المدينة في جهة الغرب ، وهناك المنارة (فنار) وبقربها منزل العلاّمة الدكتور كرنيليوس فنديك الشهير الذي خدم البلاد العربية بمؤلفاته وتعاليمه وتطبيبه نحواً من خمسين سنة . وقد نال من الحضرة الشاهانية وغيرها النياشين العالية الشأن إقراراً بفضله ، واعترافاً بجميله ، ومكافأة له على خدمه المرضية . وقد أهدى إليه أدباءُ سورية ومصر هدايا فاخرة تذكاراً لإتمامه الخمسين سنة بين ظهرانيهم ، واحتفلوا بذلك العيد احتفالاً شائقاً وسموهُ عيد الخمسين (اليوبيلي) وقد استوفت جرائدنا وصف ذلك في وقته . ومما سرّني في السوريين اعترافهم بالجميل . فإني لم ألقَ بينهم أحداً من أهل الآداب إلاّ وذكر أمامي هذا الدكتور الفاضل مفتخراً به ، وذاكراً فائدة استفادها من علمه أو عمله .

وعند المساء ، عدنا إلى منزل حماده الكرام وأثر الضعف لا يزال بادياً عليّ ، وشعرتُ بتعب في جسمي . فوصف لي حضرة الدكتور إبراهيم أفندي صافي وحضر إليّ في صباح اليوم التالي (٢٩ يونيو) وأعطاني بعض الأدوية فاستفدت منها بإذن الله .

وقد لبثنا في بيروت عدة أيام زرنا في خلالها كثيرين من الأعيان والوجهاء ، وأتى لزيارتنا كثيرون من المعارف وغيرهم ، وشاهدنا مدارس بيروت ومطابعها، ومتنزهاتها ، وأسواقها ، وحاراتها ، وأكثر ما تهمّ معرفته فيها . وسنبسط الكلام على كل نوع منهـا متحرّين نشر الحقيقة إتماماً للفائدة .

مدارس بيروت وجمعياتها

الكلية الأميركية

من جملة ما زرتهُ المدرسة الكلية الأميركية الشهيرة ، وهذه المدرسة لها فضلٌ على كثيرين من أهالي سورية . وهي مبنية غربي المدينة ، على منحدر فوق البحر ، في قطعة أرض تزيد مساحتها على خمسين فداناً . بناؤها من الخارج والداخل جميل ومتين ، وفيها برج يزيد علوهُ على مئة قدم ، وفي أعلاهُ ساعة تسمع دقّاتها في كل المدينة وترى من مسافة بعيدة . والمدرسة مرتبة بحسب ترتيب مدارس انكلترا وأميركا . وقد قُسمت إلى ثلاثة أقسام : استعـــدادي أو تجهيزي ، وعلمي ، وطبي . وهذا الأخير (القسم الطبي) فرع رسمي من المدرسة الطبية السلطانية في الأستانة العليّة .

ومعارض المدرسة غنيّة جداً ، حتى أن معرضيها النباتي والجيولوجي يحسبان من أشهر المعارض في بابيهما ، لاحتوائهما على أنموذجات شرقية لا توجد في بقية معارض أوربا . وعدا معارضها فإن بجانبها مرصداً

(رصد خانة) مستوفي الآلات ، أنشأه العلاّمة الفاضل الدكتور كرنيليوس فان ديك، السابق ذكرهُ ، وفيه يتمرّن طلبة المدرسة في علم الفلك عمليّاً ويرسَل منهُ يوميّاً رسالتان برقيّتان بالأرصاد الجويّة إلى الأستانة العليّة ومنها إلى أشهر مدن العالم .

وقد سبّبت هذه المدرسة ، وغيرها من مدارس بيروت ، نهضة أدبية دلّت على أن في الشرق رجالاً ينتهزون فرص الزمان ولا يتركون وسائط التقدم والارتقاء تذهب عبثاً . وهذا القرن قد أدرك لذة العلم ، ولذلك ترى أغلب مواضيع مباحثهم علميّة أو أدبيّة أو شعريّة . وجمعياتهم كثيرة في مدارسهم وخارجها . وأكثر أعضاء هذه الجمعيات من الشبان المهذبين . وقد وافق وصولي إلى بيروت إقفال بعض مدارسها بفسحة الصيف فتأسّفت على عدم حضوري احتفالاتها السنويّة التي قرأتُ عنها في الجرائد . وبلغني أنها كانت في غاية الكمال وسلامة الذوق ، ولا سيما ما كان منها على سبيل المباحثات والخطب من التلامذة وغيرهم .

المدرسة الأميرية وغيرها

وقد زرت المدرسة الأميرية فسرّني حسن بنائها وانتظامها وإتمام معداتها ، ولم تمكني مقتضيات الأحوال من مشاهدة ما كنت أرومهُ في هذه المدرسة ، والمدرسة السلطانية ، والمدرسة اليسوعية ، والمدرسة البطريركية وغيرها للسبب المتقدم ذكرهُ . ولكني علمت عن ثقة أن هذه المدارس مما يفتخر بها . فالمدرستان الكلية والبطريركية درس فيهما أولاد فخامتلو الصدر الأعظم ، وغيرهم من الأمراء . وغيرهما من المدارس يقصدها الناس من كل فجّ وينسلّون إليها من كل حدب ، ومع أن مدارس الحكومة في بيروت حديثة العهد فهي على أحسن نظام وأتم كمال . وكذلك

مدرسة الحكمة والمدرسة الإسرائيلية وسواهما . وفي الجملة ان بيروت غاصة بالمدارس المفيدة للذكور والإناث . وأشهر مدارس البنات : مدرسة الناصرة ، ومدرسة اللعازارية ، والمدرسة البروسية ، والمدرسة الأميركية ، والمدرسة الانكليزية . وجميعها غاصّة بالتلميذات . وقد اطّلعنا على عدة مقالات من قلم تلميذات المدرسة الأميركية منها أدرج في المقتطف ومنها في اللطائف وغيرهما ، واطلعنا على مقالات كثيرة من تلامذة هذه المدارس في الجرائد المذكورة وفي الأهرام وغيره وهي غاية في الانسجام ورقة العبارة وفوائد المبحث .

ومما يفيد ذكرهُ أن كثيرين من الطالبين يأتون من الجبال فقراء فيشتغلون بكدٍّ واجتهاد ويدفعون أجرة تعليمهم بما يحصلونهُ بتعبهم وعرق جباههم ، بينما نرى غيرهم مع كثرة الوسائط التي تبذل لهم يقصرون في مضمار المعارف والفنون وهذا دليل على اجتهاد السوريين ونهضتهم إلى إحراز الفوائد . وطالما خرج منهم إلى العالم أناس لا رأس مال لهم سوى العلم والأدب ، فنبغوا في الروسية وألمانيا وفرنسا وانكلترا وأميركا ، وأداروا مهمات الأعمال ، وتولوا التحرير في الجرائد الأجنبية ، وحازوا قصب السبق في المدارس ، ونالوا الشهادات والجوائز . كل ذلك مع ما هو معلوم من حرص الأوربيين على جنسيتهم ، وغيرتهم على تقديم أبناء وطنهم على الأجانب .

أما هيئتهم الاجتماعية فمختلطة ما بين الحسن من العوائد الإفرنجية والشرقيّة ، وليس عندهم محلات لساقيات البيرا ، وتقل عندهم المواخير وأماكن المومسات والملاهي التي تطرح بالإنسان إلى مهاوي الفقر ، وتصرفهُ عن لذّة الاجتماع بأهلهِ وخلاّنهِ .

نساء بيروت

ونساء بيروت متأدّبات محتشمات . والمسلمات منهن يتحجّبنَ عن مقابلة الضيوف . والمسيحيات يقابلنَ الزائرين باللطف والأدب ، وهن يتكلمنَ لغة أو اكثر من اللغات الإفرنجية ، فإن أكثرهن تعلّمنَ في المدارس ولهن إلمام بفن الخطابة كالرجال . ولبعضهنّ قصائد شعرية ودواوين شعرية . وقد اطلعتُ لجمعية باكورة سورية على مجموعة جمعت من خطبهنّ فأطلق ذلك لساني بالثناء على اجتهادهنّ . وقد جارينَ الرجال في عدة أمور . فالموسرات منهن ، اللواتي تربّينَ على المبادىء الأدبية ، ألّفنَ الجمعيات . وأنشأنَ على نفقتهنّ المدارس لتعليم الفقيرات مجاناً ، مثل جمعية زهرة الإحسان ومدرستها ، وهذه الجمعية تتألف من زهرة نساء بيروت . ومثل المدرسة التي أنشأتها مدام ملحمة وغيرها . ومما أذكره مع الافتخار بنساء المشرق أن إحدى السيدات من جمعية باكورة سورية في بيروت كانت تجمع من الأصدقاء بعض دريهمات وخصّصت في منزلها يومين في الأسبوع لاجتماع المعوزات من النساء ، على اختلاف الطوائف ، فكانت تعلّمهن مع رفيقة لها ، وترشدهنّ إلى الاعتناء ببيوتهنّ والنظافة ، وتربية بنيهنّ ، وتلقي عليهنّ بعض مقالات بسيطة تقرب من أفهامهن ، ثم تعطيهنّ ما جمعتهُ من المحسنين ، أو تعلمهنّ الخياطة وتعطيهنّ الثياب التي خيطنَها فيذهبنَ شاكرات حامدات . وبلغني أن جمعية باكورة سورية المشار إليها وكل أعضائها من النساء اشتركت بتقديم الهدية للدكتور فان ديك السابق ذكرهُ في عيده الخمسيني . ووزّعنَ مما جمعنهُ مبلغاً على الفقراء والمساكين . وذلك مما يدلّ على اهتمام النساء هنالك بالعلم وإعلاء شأن رجاله .

عدد مدارس بيروت

وتقدر مدارس الذكور في بيروت بسبعين مدرسة ، ومدارس الإناث بأربعين ، عدا الكتاتيب الصغيرة . وفيها من التلاميذ أكثر من سبعة آلاف ، ومن التلميذات أكثر من ستة آلاف ، ومن المعلمين أكثر من ثلاثمائة وخمسين ، ومن المعلمات نحو مائتين وخمسين . وقد خرج من هذه المدارس جماعات تفرقوا في أنحاء كثيرة من العالم على ما علمت فنالوا قصب السبق . وجانبٌ كبير من هذه المدارس للجمعية الخيرية الأرثوذكسية وهي جمعية مؤلفة من أربعة وعشرين عضواً يجمعون الصدقات ويضيفونها إلى ما تجود به أيديهم وما يحصلونه من ريع الأوقاف وينفقون ذلك كله في سبيل تعليم الفقراء مجاناً ، وإغاثة المحتاجين منهم .

وقد صارت المدارس الداخلية في بيروت أشهر من نار على علم ، وكلها تقبل التلامذة بأجور قليلة ، وتعلّم التلاميذ وتعتني بصحتهم وسلامتهم ، ومنها من ترسل مندوباً من قبلها كل سنة إلى البلاد المجاورة لأخذ تلامذة إليها .

ولا يخفى أن هذه المدارس ، وأخصها المدرستين الكليتين أي مدرسة الأميركان والمدرسة اليسوعية ، تعدّ من أعظم المدارس التي يقلّ نظيرها في أوربا نفسها ، إذ ما من عاصمة حوت مدرستين كليتين يخرج منهما كل سنة عدد من التلامذة حائزين على الشهادات البكلورية والطبية مثل هاتين المدرستين المبنيتين في هذه المدينة الصغيرة الزاهرة بالمعارف والآداب .

أما جمعيات بيروت ومنتدياتها العلمية فقد سبق الكلام عنها بالإيجاز .

مطابع بيروت وجرائدها

وأما مطابعها فكثيرة أغناها المطبعة اليسوعية ، وأقدمها مطبعة الأميركان. وفيها عدة مطابع للوطنيين اتقنوا أدواتها وحروفها حق الإتقان كما تشهد بذلك مطبوعاتهم . ويطبع في هذه المطابع عدة جرائد كحديقة الأخبار ، وثمرات الفنون ، وبيروت ، والمصباح ، ولسان الحال ، وغيرها . وليس لهذه الجرائد ما لغيرها من الحرية ، فإن مجلس المعارف في بيروت يطّلع على مسوداتها قبل طبعها لكي يحذف ما لا يوافق نشرُه . وقد تعرّفت ببعض الأفاضل أصحاب هذه الجرائد .

نزهة خارج بيروت

لما استرحنا وتحسنت صحتي ، بحمده تعالى ، ركبت العربة مع حضرة محيي الدين بك حماده ونجله الأديب وسرنا إلى المتنزه المشهور بالحرش وهو يبعد عن بيروت نصف ساعة ، وهناك الحدود بين ولاية بيروت وجبل لبنان . وهذا الغاب (الحرش) كبير مزروع بأشجار الصنوبر من أيام المغفور له إبراهيم باشا ،جدّ سموّ أفندينا الخديوي المعظّم ، فإنه ، رحمه الله ، لما دخل سورية كان من جملة إصلاحاته فيها زرع هذه الأشجار التي انتفعت بيروت وسواها بواسطتها إذ كثرت الوقود للأفران ، وتنقى هواء المدينة وما جاورها من القرى ، وامتنع تقدم الرمال التي تنسفها الرياح عن بيروت وغيرها . والأشجار مغروسة بإحكام وانتظام وهي تستعمل لأشياء كثيرة والذي يرى انتظامها لا يسعه إلاّ المدح للذي سعى في زرعها . وعلى طريق العربات الموصل إلى دمشق حيث تنزهنا حديقة للعسكر تعرف بحديقة الملة ، وقد أُنشئت من عهد حديث وبنيت فيها الفسقيات ، وأقيم كشك لدولة الوالي والأمراء ، وغرس فيها من الأشجار والرياحين ما يسرّ الفؤاد ويشرح قلوب الناظرين . ثم وضع فيها بعض الحيوانات والطيور نزهةً للناظرين ، وأقيم بعض من العساكر لحراستها

والاعتناء بها ، ورُتبت الموسيقى العسكرية لتصدح فيها يومي الجمعة والأحد من كل أسبوع بأنغامها الشجية .

وعلى مقربة من هذه الحديقة عدة مقاه يرتاح فيها الناس عصر كل يوم اثر أتعاب النهار ويمتعون النظر بالمناظر الجميلة الطبيعية في تلك الجهات. وقد اعتاد بعض شبّان بيروت وقواصيها، المولعين بركوب الخيل ولعب الجريد ، أن يذهبوا في أوقات العطلة إلى ميدان الحرش ويتسابقوا على ظهور الجياد ، ويظهروا من ضروب الفراسة ما يرتاح إليه الخاطر ويأنس بمرآه الناظر . حتى لقد ذكرتنا تلك المناظر بأيام العرب وما كانوا يأتونه من الفراسة فوق ظهور الصافنات . ثم على مسيرة نصف ساعة من الحرش ، مكان يقال له الحازمية . وهناك طريق للعربات تعرّج على الجنينة الشهيرة اللبنانية البالغة حد الاتقان في تربيتها ومغروساتها من أشجار ورياحين ، ومقاعد ، ومياه . وقد اعتنى بإنشائها وإتقانها دولتلو رستم باشا سفير الدولة العلية في لندن حالاً ومتصرف جبل لبنان سابقاً وهي حديقة غناءُ يقصدها أهالي بيروت للنزهة أوقات الفراغ من الأعمال . وفيها من كل فاكهة زوجان .

وهناك طريق العربات إلى بعبدا مركز متصرفية جبل لبنان الشتوي وإلى الحدث وهي تبعد عن الحازمية نصف ساعة . ومن هذه البلدة نبغ المرحوم أحمد أفندي فارس (الشدياق) المشهور ، وفيها عـدة من الأمراء الشهابيين والأعيان . ومنهـا أيضاً جناب العالم الفاضل الدكتور يعقوب أفندي صروف أحد منشئي المقتطف والمقطم . وبالقرب من الحدث كفرشيما التي نبغ منها الشاعر المشهور الشيخ ناصيف اليـازجي وآل شميل الكرام وبيت تقلا وغيرهم .

وعند الحازمية ، حيث تتفرع الطريق إلى الشام وجهات لبنان ، ضريح للمغفور له فرانقو باشا متصرف لبنان السابق ، وآخر للمرحوم أحمد أفندي فارس . وترى على جانبي طريق الحازمية أشجار الازدلخت والصفصاف ، ومن الجهتين البساتين الجميلة الكثيرة الفاكهة والخضر .

الرجوع الى بيروت

بعد ما استرحنا هناك وسرحنا الطرف بتلك المناظر الجميلة الطبيعية والصناعية عدنا إلى منزل حضرة مضيفنا الفاضل فوجدناه غاصاً بالزائرين ، ومن الجملة حضرة عزتلو فضل الله بك سيور ، وكيل وابورات البوستة الخديوية في بيروت ، وقد اعتنى بتحسين شؤون هذه الوكالة منذ تولى إدارتها حتى صار الأهالي يفضلون وابوراتها على سائر الوابورات . وقد دعانا إلى الغداء في منزله في اليوم التالي فلبينا الدعوة وكان ذلك يوم الاثنين في ٣٠ يونيو سنة ١٨٩٠ فتوجهنا الساعة العاشرة صباحاً إلى منزل حضرة سيور البك المشار إليه فوجدنا هناك حضرات فضيلتلو الشيخ عبد الخالق السادات ، وسعادتلو سليم بك تقلا صاحب الأهرام ، وشقيقه الدكتور إبراهيم بك ، وهؤلاء من المصريين . وحضرات الأمير أرسلان ، ومأمور تلغرافات ولاية سورية ، وجمهوراً من أعيان بيروت يفوق عددهم العشرين. وكانت المأدبة على أتم الإتقان وقدمت فيها أفخر ألوان الطعام . وزادها لذةً وأنساً لطف الآدب وإكرامهُ ومؤانسة الحاضرين لنا من البيروتيين . وقد رأيت من الجميع حسن الميل إلى المصريين والمحبة لهم وأيقنت أنهم يحسبون أنفسهم مرتبطين وإياهم بعلاقات التابعية واللغة والجيرة والجنسية . وبعد تناول الطعام خرجنا شاكرين حضرة سيور بك على إكرامه إيانا ومؤانستهِ لنا .

ومما عددته حسناً لإخواننا السوريين ما بلغني ، عن ثقة ، من أنه لما حدثت الثورة الأخيرة في مصر وهاجر كثيرون إلى بر الشام أفرغوا لهم المحلات وأنزلوهم على الرحب والسعة . وليس ذلك فقط ، بل انه لما صدرت الأوامر من الأستانة العلية بطرد بعض المصريين من سورية التمس الأعيان من دولة الوالي وقتئذ أن يخابر دار السعادة بالعدول عن هذا الأمر ، وقال جماعة أنهم يكفلون أولئك المطرودين ويتعهدون أنه لا يبدو منهم حركة ولا غدر ، وفتحوا لهم صدور المجالس والمحافل واهتموا بهم اهتمامهم بأنفسهم . وقد علمت هذا الأمر وتأكدته من الثقات فأحببتُ ذكره إظهاراً لارتباطنا مع إخواننا السوريين برابطة المحبة والولاء ، وأن البلادين واحدة كالأخ يلوذ بأخيه وقت الشدائد والضيقات . وزيادة على ذلك أن كثيرين من وجهاء بيروت وأعيانها كانوا يعقدون الجمعيات ويجمعون الأموال ويساعدون بها المحتاجين من ضيوفهم أجزل الله ثوابهم .

في ضبيّه - نهر الكلب

في ذلك اليوم توجهتُ برفقة حضرة نجل محيي الدين بك حماده وحضرة درويش أفندي الغزاوي إلى الضبيّه ، وهو المكان الذي فيه الوابور الدافع لمياه نهر الكلب إلى بيروت . وهذا المكان يبعد عن بيروت نحو ثلاث ساعات على الماشي ، ولكنّ العربات تصلهُ بأقرب من هذا التحديد . وفي الضبيّة أوتيل (نزل) ومقهى تابع له وعدة محلات للاستراحة يقصدها النّاس للنزهة وترويض النفس من مشاق الأعمال ، وهناك (حاووز) حوض كبير لخزن المياه التي تبعث إلى بيروت ، وشلاّل طبيعي أشبه بالشلاّلات الصناعيّة ، وعدة مغروسات . أمامها البحر المتوسط من جهة ولبنان من جهة أُخرى وبيروت قبالتها . وكل ذلك من المناظر التي تبهج الإنسان وتزيح همومهُ .

أما مياه نهر الكلب فتجري من ثقب جبل صخري من مغارة تدعى جعيتا موقعها في سفح جبل صنّين ، ويصب في البحر المتوسط بالقرب من الضبيّه . وإلى جهة الشرق الشمالي (كبري) جسر يدعى جسر نهر الكلب. وعلى ضفتيه جبال وصخور هائلة ، وآثار قديمة منذ مئات من السنين . وهناك صورة سنحاريب ، ملك آشور ، منقوشة على صخر لا تزال إلى

الآن وكانت أعماله مكتوبة على الصخور مع ذكر تغلبه على فينيقية . ثم صورة رعمسيس الثاني ، ملك مصر ، وأعماله وفتوحاته عند ذهابه إلى آسيا وفتوحاته فيها ، وهناك أيضاً آثار أخرى أضربنا عن ذكرها حبّاً بالاختصار .

ومنذ عهد قريب اهتمت شركة انكليزية بجرّ مياه نهر الكلب المذكور إلى بيروت لعذوبتها ونقاوتها ، فثقبت جبلاً صخرياً كان حائلاً بين الضبيّه والماء واستحضرت الماء ، بعد إنفاقها نفقات طائلة على المهندسين والعملة ، وجرّت المياه النقية من مصبّها عند مغارة جعيتا . وبعد تعب جزيل وصلت المياه إلى بيروت باحتفال عظيم لم يسبق نظيره . ثم أن بيروت كثيرة الآبار حتى تكاد ترى بئراً في كل بيت فيها (وقيل ان تسمية بيروت مأخوذ من كثرة الآبار فيها) . ولكن لما وصلت ماء نهر الكلب استغني عن تلك الآبار ، وان ماء بعضها كان ملحاً . وقد حلل حضرة الدكتور يعقوب صروف مياه نهر الكلب ، لما كان في بيروت ، فوجدها من أنقى المياه ، وكتب بذلك فصلاً قدمه في المجمع العلمي الشرقي على ما في المقتطف . والحق يقال ان مياه بيروت نقية خفيفة لطيفة لا تحتاج إلى التقطير ولا التكرير ، وقلما ترى منزلاً في هذه الأيام وليس فيه بركة ماء ، ولا حديقة إلا وفيها بركة . ولا تزال مناظر الضبية أمام عيني وأتذكر كل دقيقة قضيتها هناك وكنت أشعر فيها بتجدد قواي اثر الضعف الذي أصابني .

العودة إلى بيروت

عند المساء ، عدنا إلى بيروت في الطريق التي ذهبنا فيها ، وهي في وسط البساتين المزروعة توتاً ، وأرضها رملية مائلة إلى الاصفرار ، ومعدنها قوي ، فمررنا على (كبري) جسر نهر بيروت الذي يصب في

البحر وشاهدنا عدة جداول وسواق من المياه تنساب في تلك الجهات انسياب الأفاعي ، ومنظر الأشرفية (أحد أحياء بيروت) أمامنا ، وقضيناها ليلة رق أديمها وصفا نعيمها في منزل مضيفنا الفاضل .

وفي صباح اليوم التالي جاءنا حضرة الدكتور البارع إبراهيم أفندي صافي فوجد أن صحتي تقدمت تقدماً حسناً فسر كثيراً ، فامتدحتُ مهارته وشكرت اهتمامه بي واعتناءه بصحتي . ثم توجهت مع حضرة عزتلو محيي الدين بك حماده لزيارة مستشفى الحكومة السنية ، فقابلنا هناك جناب الفاضل الدكتور خيري بك ، نجل أحد أعيان الأستانة العلية ، وأرانا مع رفقائه الأطباء غرف المستشفى ومعداته ، فإذا هو كامل الترتيب ، نظيف للغاية ، وجميع أسرته على أحسن ما شاهدت في المستشفيات (الاسبتاليات) . وكان المرضى قليلين وذلك لجودة الهواء واعتناء حضرات الأطباء . ومما زادني سروراً أنس حضرة الدكتور خيري بك ، ومعاملته مع حضرات رفقائه المرضى باللطف والاعتناء والاهتمام الزائد. وبلغني أن معظم الفضل في قلة الأمراض عائد لحضرة الفاضل حماده بك ، رئيس مجلس بلدية بيروت ، الذي يفرغ جهده أثناء الليل وأطراف النهار مهتمّاً بأحوال النظافة ، وإزالة ما يضرّ بالصحة العمومية . حتى انه كثيراً ما يجول في أنحاء المدينة ماشياً على قدميه لرؤية ما يجب رؤيته بالعيان . ويساعده في هذا الاهتمام حضرات أعضاء مجلس البلدية الذين هم من وجوه بيروت . فاستحق الجميع خالص الثناء وشكر العموم . وانصرفنا من المستشفى شاكرين لحضرة رئيسه والقائمين بشؤونه .

ثم زرنا مطبعة ثمرات الفنون فقابلنا حضرة الفاضل عزتلو عبد القادر أفندي قباني ، بما جبُل عليه من حسن السجايا وكرم الأخلاق واللطف . وأرانا غرف المطبعة وبقينا عند عزته برهة ، فرأينا منه جميل

خلق وأدب ، وتضلّعاً بمعرفة القوانين وأساليب السياسة ، مع علم وذكاء وطباع محمودة . وكنا نشتهي أن نقضي مدةً مع حضرته لولا وفرة أشغاله ، ففارقنا حضرته على أمل اللقاء .

ثم أتينا المطبعة الأدبية فقابلنا فيها حضرة الفاضل خليل أفندي سركيس صاحبها ومدير جريدة لسان الحال الغراء ، ورأينا مطبعته على أتم نظام وأحسن إتقان حتى تكاد تضاهي المطابع الأوربية . ومما سرنا حسن مؤانسة حضرة خليل أفندي ومحبة الجميع له وأدبه في حديثه . ثم انصرفنا شاكرين لحضرته على حسن الاستقبال ، وراجين له زيادة النجاح في الحال والاستقبال .

ومما أدهشنا أن بعض أسواق بيروت في داخل المدينة ضيّق حرج وذلك لأنها بنيت قبل أيام التنظيم حين دعت الضرورة إلى بنائها على هذا الطراز . ولكنّ من يدخل البيوت يرَ في الداخل ما لم يَسَرَهُ في الخارج حيث الأرض مفروشة بالمرمر والرخام ، والبيوت مبنية على أتم إتقان وأحسن هندام ، والنوافذ كلها تطلّ على البحر فيتجدد الهواء في البيوت ، وذلك مما يجعل المقام في بيروت أحب من السكنى في غيرها من المدن .

ومن الذين عرفوا بعلو الهمة واللطف في بيروت حضرة عزتلو محمد رشيد أفندي الدنا صاحب جريدة بيروت البهية ، وشقيق سعادتلو أفندم عبد القادر أفندي الدنا ، رئيس مجلس تجارة بيروت ، فإنه جمع بين اللطف والذكاء ، والمؤانسة مع الإخلاص والمروءة . ومحل إدارته في مطبعة الجريدة بسوق سرسق الجديدة التي بنيت مكان السراي القديم . وهنالك بنك سرسق ، ومحل جماعة من التجار المشهورين منهم الخواجه ميخائيل غبريل ، شقيق الخواجه يوسف غبريل الذي أقام في منشستر ببلاد الانكليز ، ومن عهدٍ قريب ذكرتهُ جرائدنا المحلية عند اقترانه بكريمة حضرة عزتلو جبران أفندي إسبر ، من أعيان دمشق وفضلائها ، ووصفته بالأمانة

والشهامة حتّى نال مركزاً مهمّـاً في بلاد الانكليز . ومنهم الخواجه نقولا منسى الـذي نجح با[illegible] ومهارته . وغيرهم جماعة من الـذين يتعاطون التجارة مع البلاد الإفرنجية . وعلمت أن لبعضهم أقرباء يرسلون إليهم البضاعة من بلاد الإفرنج حيث يقيمون ، وبعضهم توظف في الحكومة الانكليزية بوظائف مهمة لاستعدادهم . وهنا تأكدت أن السوريين يميلون طبعاً إلى التغرب والأسفار كأسلافهم الفينيقيين الذين جابوا الأرض وسألتُ أحدهم مرةً ما هو سبب حبكم للتغرب ؟ فأجابني بقول الشاعر :

لولا التغرّب ما ارتقى — درّ البحور إلى النحورْ
السّاكنون بـأرضهم — عندي كسكانِ القبورْ

وهم يحسبون أن الغربة تفيد وتزيد الاختبار . وبلغني أن بعض أهالي سورية من التجار وغيرهم يغيبون عن منازلهم زمناً ثم يعودون إلى وطنهم بما يدّخرونه باجتهادهم . فمدحتُ فيهم هذا الميل الوطني لأن الذي لا محبة فيه لوطنه لايرتجى منه محبة لغيره. وإلى جانب سوق سرسق سوق رعد وهاني وقد بنيت حديثاً على أسلوب جميل محكم ، وفيها يقيم الصاغة . وبالحق ان لصاغة بيروت مهارة ومعرفة ودقة في العمل ولا سيما المعروف منه بكسر الجفت وغيره . ولأهل بيروت براعة ومهارة في التجارة ، ولا يخلو مجلس لهم من ذكر الأمور التجارية . وإلى جهة الشرق من السوق المذكورة الحديقة الحميدية ، وهي جنينة مغروسة بالأغراس والأشجار ، وفيها الرياحين والأزهار ، على نسق الجنينة الأوزبكية بمصر والمنشية بالاسكندرية ، ولكنها أصغر من الأولى كثيراً ومن الثانية قليلاً .

وعند آخر الجنينة باب سراي الحكومة حيث يشاهد الناظر بناءً فخماً شيد من عهدٍ قريب ورتب حسب ذوق أشهر المهندسين . ولغة الحكومة

المستعملة في بيروت هي اللغة العربية ، ولكن المخابرات الرسمية باللغة التركية .

وشاهدنا عند عودتنا إلى منزل حضرة مضيفنا الفاضل بناء فخيماً لم يكمل بعد هو كنيسة للطائفة المارونية . وسألتُ عن سبب تسمية المحل الذي بجانب الحديقة الحميدية « بالبرج » فقيل لي انه كان هناك برج كبير عال توضع فيه المؤونة والذخائر الحربية للحكومة ، وكان يدعى البرج الكشّاف ومنه تسمية ذلك المكان بالبرج .

وعند وصولنا إلى المنزل وجدنا زواراً كثيرين وما منهم إلاّ من دعانا إلى الطعام عنـده فاعتذرنا لحضراتهم مع الشكر على كرم أخلاقهم . وفي ذلك اليوم زرنا سعادتلو فخري بك ، نجل المرحوم محمود باشا ؛ وهو من أعيان مصر فقابلنا بالمحبة والإكرام والملاطفة وعلمنا بما ناله من إخواننا السوريين من الحب والاعتبار حتى آثر الإقامة عندهم على المقام في وطنه . وقد زارنا في بيت حضرة حماده بك ، وكان قد انتخب رئيساً لمجلس بلدية بيروت ، ومكث زمناً في هذه الوظيفة . وكان يتجاوز في خلالها عن راتبه حبّاً بمصلحة البلدية ، وله عدة إصلاحات وأعمال تذكر فتشكر . وعيّن متصرفاً للبلقاء ثم استعفى وأقام في بيروت .

ومما لاحظته وسمعت عنه قوة جسم البنائين وثباتهم في العمل طول النهار غير مبالين بحمّارة الحر ، وصبارة البرد ، فاستغربتُ منهم ذلك . وشاهدت من صناعة النجارين ودقة أعمالهم ما جعلني أثني عليهم وعلى مهارتهم . والغريب أن أكثر أصحاب هذه الحرف لم يتعلموا صنائعهم على أساتذة ولا في مدارس بل حصّلوا ما حصّلوه بجدهم وباجتهادهم وثباتهم .

أما معاملهم ، كمعمل الورق الذي أنشأه الخواجات باحوط وثابت ،

فتدل على ميلهم لترقية الصناعة والتجارة ولذلك لا نستغرب نجاح هذا المعمل بهمة أصحابه . ولا بدع ان استُعمل ورقهُ في مصر والاستانة وسورية وغيرها من البلاد ما دام نظيفاً ومتقناً ومسهّلاً أكثر من غيره . وأما معامل الحرير وغيره فعلى أتم نظام وأكمل إتقان. وهذه المعامل لا دخل للحكومة فيها وإنما هي للأهالي ، ولا دخل للشركات الأجنبية فيها وكل عمّالها من الوطنيين .

والأمر الذي لا أود الإغضاء عنه الجمعية الصناعية التي أنشئت في بيروت برئاسة حضرة الفاضل شاهين أفندي مكاريوس ، صاحب اللطائف والمقطم ، وذلك سنة ١٨٨٣ لما كان في بيروت . فإنه لما رأى وفرة المدارس في بيروت وسورية ، وكثيرون يخرجون منها ولا صنـاعة لهم يتعيشون منها ، تألف مع نخبةٍ من رؤساء الصناعات الماهرين في الصناعة وأنشأوا جمعية دعوها جمعية الصناعة ، وسنّوا لها قوانين ونظامات وطبعوها . وكانوا يعرضون أعمالها كل سنة في جلسةٍ احتفالية يدعون إليها رجال الحكومة وأعيان المدينة وذلك مدون في مجموعتها مع خطب رئيسها الذي أقام ثلاث سنين رئيساً عليها . وقد بلغني أن فضيلتلو سيادتلو عبد الله أفندي جمال الدين من أعيان الأستانة العلية وعلمائها المشهورين ، وأحد أنسباء سماحتلو شيخ الإسلام في دار السعادة سابقاً ، كان يزور رئيس الجمعية المشار إليها لما كان قاضياً في بيروت وينشطه ويستحسن عملهُ المبتكر في تلك الديار .

وللسوريين ميلٌ للاختراع ولو لم يكن هذا المجال فسيحاً لهم كما يجب . وقد قام بينهم أفرادٌ يستدل منهم أن للشرقي قوة الاختراع كالغربي ، منهم رجل يسمى الخواجه الياس اجيا بلغني أنه اخترع ساعة تمثّل حركة الأرض والشمس والقمر والسيارات ،وقد عرضها في الأستانة وأوروبا ، فشهدوا ببراعته ولا سيما لأن له قليل إلمام بالقراءة والكتابة . وقد جاء في

المقطم نقلاً عن جريدة إنكليزية أن شاباً من بيت المدور اخترع نوعاً جديداً من تذاكر السفر في السكة الحديدية مصنوعة على طريقة يمكن أن يوضع داخلها إعلانات للمحلات التجارية فتألفت شركة في بلاد الانكليز لاستعمال هذا الاختراع وربح هو منه أموالاً طائلة . واخترع سوريّ آخر في أميركا باباً للسكك الحديدية يوضع بجانب الكبري فيسد الطريق من نفسه عند فتح الكبري ويمنع سقوط القطار في الماء . ورأيت عدة أعمال دقيقة للصناع في بيروت والذين امتازوا بينهم كجرجي أفندي صابنجي المصور المشهور وخليل أفندي شاول الساعاتي المشهور الذي امتاز على تلامذة مدرسة جنيفا بعمل الساعات وسليم أفندي حداد وغيرهم .

وأشهر أحياء بيروت حي الرميلة أو الصيفي حيث منازل أشهر أغنياء سورية كآل بسترس وسرسق وتويني وغيرهم . وبيوتهم تحاكي القصور الشاهقة في فخامتها وزخرفتها وحسن أثاثها . وقد لبثت في بيروت عدة أيام ولم أتمكن فيها من التفرّج على كل شيء ليس لكبر المدينة بل لأنها حوت أشياء عديدة وكان وقت الصيف وقد ذهب أكثر الأهالي إلى لبنان لقضاء هذا الفصل .

مستشفيات بيروت

مستشفى الحكومة

ذكرتُ فيما سبق عن مستشفى الحكومة الذي زرته وأشرتُ قبلاً إلى وجود غيرِه من المستشفيات في بيروت .

مستشفى البروسيين

المستشفى البروسيـــاني المشهور في بيروت « بخستخـــانة بروسيا » يقبل المرضى الفقراء مجاناً وهو على نفقة أمراء فرسان مـــار يوحنا ، وموقعه في رأس بيروت قرب المدرسة الكلية على مرتفع من الأرض يحيط به حديقة واسعة فيها من كل فاكهة زوجان ، وقد زرع فيها أحسن الأغراس وأنفع الأشجار ، وتتخللها المياه كلها . ومحلات المرضى والغرف في المستشفى على معظم ما يمكن من النظافة والاتقان لاعتناء الراهبات الفاضلات اللواتي يتولّينَ الخدمة فيه لوجه الله الكريم . ورئيسته الحالية السيدة لويزا ، وهي بجسارة الرجال ومعرفة العلماء ونخوة الأبطال . وفي هذا المستشفى

خدم العلاّمة الفيلسوف الدكتور فان ديك السنين الطوال ، ونال من لدن أمبراطور ألمانيا أعلى نيشان يهبهُ جزاء فضله وأمانته. وكان يشاهد ويطبّب في السنة أكثر من اثني عشر ألف مريض . وكذلك العلاّمة الفاضل الدكتور يوحنا ورتبات وذلك مجاناً لوجه الله . ويرِد على محل المعالجة (كلينيك) اليومية ألوف من المرضى في السنة . ويطبّب فيهِ الآن أساتذة القسم الطبي في المدرسة الكلية .

مستشفى اليسوعيين

ومستشفى اليسوعيين يديره أساتذة الطب في المدرسة اليسوعية ، وهم يطببون أيضاً في مستشفى الراهبات اللعازاريات. وهذا المستشفى مما يخلّد الذكر الحميد لرهبنة اللعازارية لأني سمعتُ ثناء عاطراً عليه وعلى القائمين بشؤونهِ .

مستشفى الروم

المستشفى الجدير بالذكر المستشفى الوطني للروم الأرثوذكس فإنه أُنشئ على نفقة الوطنيين بمال المحسنين . ويطبب فيه مجاناً الفيلسوف الدكتور فان ديك والدكتور حبيب طبجي والدكتور سمعان الخوري وغيرهم .

بعض أطباء بيروت

الأطباء في بيروت كثر وأغلبهم من الوطنيين . وقد اتصل بي أسماء بعضهم منهم : جناب الدكتور إبراهيم صافي طبيبي ، والدكتور شاكر

الخوري ، والدكتور ملحم فارس ، والدكتور عبد الرحمن الأنسي ، وغيرهم من تلامذة مدرسة قصر العيني بمصر . والدكتور أديب قدورة ، والدكتور سليم جلخ ، والدكتوران حبيب وحنا جبور ، والدكتور الياس شكرالله ، والدكتور يعقوب ملاّط ، وغيرهم من المدرسة الكلية ومن مدارس أُوربا وأميركا . وفيها جماعة من الأطباء الأجانب المشهورين أيضاً : كالدكتور بوش ، والدكتور بركستوك ، والدكتور بوست الجراح الشهير ، والدكتور لورانج البروسي وغيرهم .

علماء متوفون

السوريون يغارون على العلم والعلماء ، ولو قاوموا بعضهم بعضاً في بعض الأحيان ، وقلما تخلو محافلهم من ذكر أفاضلهم المتوفين كالشيخ عبد الغني النابلسي ، ومحمود أفندي حمزة ، والشيخ ناصيف اليازجي ، والمعلم بطرس البستاني وغيرهم . وقد اطلعت على ديوان شعري للأول وعدة كتب وسأنقل شيئاً عنه عند الكلام على دمشق . واطلعت للثاني على تفسير للقرآن الشريف بالحروف المهملة ومؤلفات اخرى شهيرة . واطلعت للشيخ اليازجي على عدة كتب لغوية وعلى مقاماته المدعوة « مجمع البحرين ».

ومن أشهر علمائهم المتوفين المرحوم الفاضل الشيخ يوسف الأسير الأزهري وله عدة مؤلفات فقهية ولغوية وشعرية ، وقد اهتمّ بعض الأفاضل بنشرها في كتابٍ واحد ، وكان رحمهُ الله متواضعاً أنيساً ، روى لي بعضهم عنه أنه في مدة حياته لم يبخل على أحد طلب منه استفادة بشيء وأمكنه الإجابة عنها وردهُ خائباً . وكان يساعد الدكتور فان ديك في تنقيح بعض الكتب الدينية . وفي أثناء الصيف الماضي جمع بعض الأدباء ما رثاه فيه الشعراء وقالته الجرائد عنه وطبعه في كتاب على حدة .

ومنهم العلاّمة المرحوم بطرس البستاني ، وهو أوّل من أسّس على نفقته مدرسة عالية درس فيها كثيرون من رجال هذا العصر . ومؤلفاته أكثر من أن تحصى . فقد بلغني ممن عرفوهُ وعاشروهُ زمناً طويلاً أنه كان هماماً حتى أطلق عليه لقب الجبار . ومن مؤلفاته محيط المحيط وهو قاموس في العربية نال عليه الجائزة الأولى من الدولة العلية . ودائرة المعارف ، وهي أشهر من أن تذكر ، كيف لاوقد نالت من حكومتنا السنية ووزرائها وأخصهم دولتلو أفندم رياض باشا رئيس النظار جانب الالتفات والاعتبار ، فأمدوها بالمال وبالمساعدة الأدبية ، وهي خلاصة ما في مئات من الكتب الإفرنجية والعربية وزبدتها . ومعلوم أن مثل هذه التآليف لا يقدم عليها في أوربا إلاّ جمعية كبيرة برأس مال وافر ، ولكن صاحب الدائرة أقدم عليها بنفسه معتمداً على قلمه وثباته ومساعدة ولده الأكبر المرحوم سليم غير أن الله لم يفسح في أجلهما فقضيا قبل ظهور الجزء التاسع . وقد قرظ هذا الكتاب النفيس العلماء الأعلام والرؤساء الفخام والوزراء الكرام . وقد أنشأ عدا دائرة المعارف جريدتين إحداهما سياسية ، والأخرى علمية سياسية ، بقيتا في عالم الظهور نحواً من ست عشرة سنة ، كانتا في خلالها من أعظم الوسائط لترقية شأن العلوم والآداب في سورية .

ختام الكلام عن بيروت

ولا يمل القارىء من إطالة الكلام عن بيروت وأهلها ، فإني شاهدتُ فيها أكثر مما كتبت ، وقد ولعتُ بها منذ دخولي إليها ، ولم أفتر عن السؤال عنها واستطلاع أخبارها الماضية والحاضرة شأن الغريب المتشوق للاطلاع على أخبار الأقطار التي يزورها . ولذلك أذكر شيئاً بالاختصار عن حالتها العمومية .

ذكرنا قبلاً أن بيروت فرضة دمشق ،ونزيد الآن أنها فرضة سورية كلها . وهي أكبر الموانىء الآسيوية ، على بحر الروم ، بعد أزمير ، وتجارتها مع الخارج وافرة جداً وخصوصاً مع أوربا فإن أهم وارداتها منها . أما صادراتها فقليلة بالنسبة إلى الواردات وأغلبها الحرير والزيت . وسكانها كما تقدم أكثر من مئة ألف نسمة ،ويرد إليها كثيرون من جبل لبنان وغيره لبيع حاصلاتهم من الخضر والأثمار . ولمشترى لوازمهم من الأقمشة وغيرها .

وأهل بيروت ذوو همة في الأشغال يقومون صباحاً قبل الشمس

ويشتغلون طول النهار بلا ملل ، كلٌّ في عمله . ولا تكاد ترى بينهم باهلاً يتردد بلا عمل إلاّ فيما ندر .

وتحتوي هذه المدينة على كل طبقات الناس، ففيها الأغنياء وأصحاب البنوك كالسادات بيهم وإياس والخواجات بسترس وسرسق وتويني وغيرهم. وفيها المتوسطون كتجار المانيفاتورة ، وأصحاب المخازن وغيرهم، وفيها أصحاب الحرف والصنائع وغيرهم . وكل هذه الطبقات تأتلف بعضها مع بعض ولا سيما في أيام المواسم والأعياد حتى تكاد لا تميز بين غنيهم وفقيرهم . وكلهم مجدّون في أعمالهم ، مواظبون عليها ، رغماً عن وقوف حركة الأشغال. ولولا ذلك الاجتهاد لضرب الفقر أطنابه فيما بينهم. ويرى المنتقد ان كلاً من الأهالي مكتف بعمله غير ساعٍ إلى الإيقاع بالآخر ، ولذلك ترى المزاحمة قليلة بينهم وكلهم على أتم الوفاق كأنهم قد أدركوا أن لكل إنسان وظيفة في العالم وهذه الوظائف مجموعة معاً تؤلف الهيئة الاجتماعية .

وبعد أن لبثتُ مدة في منزل حضرة مضيفي الفاضل عزتلو محيي الدين بك حماده ، رئيس مجلس بلدية بيروت ، ولقيت من حسن ضيافته ومؤانسته وإكرام البيروتيين ولطفهم ما يجعلني أردّد عبارات الثناء تكراراً عليهم ، شددتُ الركاب إلى جبل لبنان لقضاء بضعة أيام ترويحاً للنفس وتبديلاً للهواء.

لبنان

ركبنا من بيروت مركبة لشركة طريق الشام الفرنسوية فسارت بنا إلى جهة حرش بيروت ، ثم الحازمية التي وصفناها فيما مرّ،وما زالت تسير بنا في طريق متعرّجة لسهولة السير وأنا انظر يميناً ويساراً وأشعر بانتعاش في جسمي لبهجة المناظر وجمالها ، فإن الطريق أشبه بخيط أبيض بين صخور الجبل وغاباته ، وينفق عليها سنويّاً مبالغ وافرة لإصلاحها . وعلى جانبيها الأودية والتلال ، والقرى العامرة ، والينابيع والفنادق ، وكلما زاد الارتفاع كنا نشاهد مناظر طبيعية يتمنى المرء عدم مفارقتها للتمتع برؤيتها واستنشاق الهواء النقي من تلك الأماكن الجميلة .

وكانت بيروت أمامنا والقرى والمزارع المجاورة لها كأنها من المدينة نفسها ، وكأن ساحل بيروت جنة خضراء متصل بعضها ببعض تسر الناظر كيفما التفتّ .

عاليه

وما زالت العربة تسير وأنا أتمنى طول مدة السفر حتى وصلنا إلى عاليه

فنزلت في فندق (لوكندة) بسول . وهذا الفندق مبنيٌّ في أعلى البلدة على نظام بيوت بيروت الجميلة وهو على أحسن ما يرام من حسن الخدمة والنظافة والإتقان ولطف المستخدمين ، ويحسب من الدرجة الأولى بين النزل التي نزلت فيها من بعض الحيثيات ، ولكنه يمتاز عنها بحسن موقعه ، ونقاوة هوائه . فكنت أقف في نافذة غرفتي وأرى ما لا أراه في بلاد سهلية كبلاد مصر . فإذا التفتُّ شمالاً أرى قرية عاليه وتحتها وادٍ يتصل آخره بالسهل الممتد إلى البحر . ثم أرى بيروت وبيوتها الجميلة وسطوحها الباهية بالآجر وأمامها البحر الأزرق الفسيح والسفن البخارية والشراعية ذاهبة وآيبة في عرض البحر . والسهل المتصل بالبحر دائم الاخضرار حيث غابة الزيتون الشهيرة المسماة بصحراء الشويفات ، وهي على مسافة ثلاث ساعات على الماشي ، وقيل انه لا يوجد نظيرها في الدنيا كلها . وبعد ذلك يبتدىء الجبل الأجرد بصخوره الهائلة وغاباته اللطيفة . وكنت ألتفتُ شرقاً وجنوباً فأرى جبال لبنان وقممه الشاهقة وأشتهي الصعود إلى أعلاها ليتسنى لي رؤية ما لا أستطيع أن أراه من غرفتي . وإلى الغرب كنت أرى الطريق الموصلة إلى سوق الغرب . أما عاليه فبلدةٌ كبيرة بيوتها متفرقة وفيها عدة مبانٍ فخيمة لأغنياء بيروت من وطنيين وأجانب ، أشهرها منزل الوجيه الخواجه نجيب بسترس وهو من أجمل بيوت لبنان ، ومنزل شكور أفندي طراد ومنازل آل بسترس ومنازل مرسلي الأميركان وغيرهم . وكلها غاية في حسن النظام والترتيب ، والجنائن حولها بهيئة تقرّ الناظر وتسرّ الخاطر . ومياه هذه البلدة على غير ما يرام ولكن في أسفلها نبعاً يقال له عين الرمّانة يجري إلى قريةٍ صغيرة تعرف بهذا الاسم في الوادي الذي تحت عاليه ، ويحسَب من أحسن الينابيع لعذوبة مائه ، وكثيرون من المصطافين يجلبون ماء الشرب منه .

وهذه البلدة مركز مديرية (والمديرية في عرفهم « المركز ») . وفي

فصل الصيف يُرتب فيها بيت للتلغراف متصل ببيروت وبيت الدين ، مركز متصرفية لبنان ، وفيها أجزاخانة لحضرة الصيدلي البارع مراد أفندي بارودي . ويطبّب البلدة العالم الفاضل الدكتور اسكندر بارودي الذي يقيم بسوق الغرب وغيرها . وفيها عدة مدارس ابتدائية ، وكنائس ، وفنادق ، ويصطاف فيها جمهور كبير من أعيان بيروت من وطنيين وأجانب .

سوق الغرب

وقد مكثت في عاليه مدة سررت فيها غاية السرور . وفي أثناء تلك المدة قصدت زيارة سوق الغرب ، فركبت العربة وأتيت على الطريق الواقعة في لحف الجبل بين غابات الصنوبر والأشجار المختلفة الأشكال والألوان ، فسألت السائق أن يستمهل ريثما أمتع النظر بتلك المشاهد الطبيعية التي لا تزول من فكري ، فمشى الهوينا حتى وصلنا إلى قرية بمكين وسوق الغرب. وهاتان البلدتان متصلتان ويقيم في الأولى مدير تلك الناحية ، وفي بمكين ديرٌ شهير يُعرف بدير الشير للروم الكاثوليك ، وفيه رهبان جمعوا ثروة طائلة فسمح لهم أن يبنوا أبنية يتصرفون بريعها ، ومتى توفاهم الله ينتقل ملكهم وقفاً للدير . فبنوا عدة أبنية فخمة أشبه بالقصور وهم يؤجرونها للمصطافين . والغاب المزروع فوق الطريق من شجر الصنوبر إنما زُرِع بهمة رهبان هذا الدير الذين لا يكفون عن الاهتمام بالعمل والاجتهاد في الأمور حتى صاروا قدوة لغيرهم .

ولما وصلتُ إلى سوق الغرب زرتُ الخواجات سرسق والخواجات تويني فلقيت منهم كل كرم وإكرام . وهؤلاء الذوات من أصحاب الثروة الواسعة وتراهم مع وفرة غناهم متواضعي النفس ، ليني العريكة ، لطفاء الحديث ، يعاشرون الطبقات الفقيرة من الناس ، ويساعدون من

يرون وجوب مساعدته . وقد سبق لنا وصف بعض أعمالهم ، وهم الذين يمتلكون مرج ابن عامر الشهير في التاريخ . وأما منازلهم فبأعلى قمم البلدة يصلون إليها بالمركبات تجرها الجياد المطهمة ، وهذه المنازل غاية في الفخامة والجمال . وهواؤها نقيّ من الجهات الأربع ، وسطوحها كلها من الآجر ، وهي مبنية على أسلوب متقن ومنظمة تنظيماً فاخراً .

وفي سوق الغرب مجلس للبلدية يهتم بشؤونها ، فنراها نقية داخلاً وخارجاً ، ويفضلها المصطافون على سواها لجفاف هوائها ، ولكنها قليلة الماء لوقوعها قرب رأس الجبل كعاليه ولذلك يجلب أكثر مائها من ينابيع بمكين الكثيرة الواقعة في منخفض من الأرض . والينابيع تنفجر غالباً من سفح الجبال ، فيبني لها الاهالي مجاري منحدرة حتى تصل الى الاماكن المطلوبة حيث يبنون لهـــا حائطاً وفيه ميزاب تخرج الماء منه فيتلقفونها بآنيتهم ويقال لهذا المحل « العين » . والداخل إلى سوق الغرب من عاليه يرى أمامه بناءين فخيمين للخواجات سرسق وتويني ، ثم يمر تحت دير الروم الأرثوذكس ، البلدة ، وفي هذا الدير بعض محلات للايجار وهو وقف للكنيسة ويسمى دير مـــار جرجس وموقعه في أحسن بقعة وأبهج مكان .

وسوق الغرب بلدة صغيرة ولكنها لطيفة ، وفيها فنادق للمصطافين والغرباء ، وهي لذيذة الأطعمة ، وكثيرة الفاكهة ، ورخيصة الثمن ، وتامة الإتقان . وفيها مدرسة داخلية لمرسلي الأميركان أستاذها الفاضل جرجس أفندي نصار . وفيها أجزخانة لجناب الفاضل الدكتور اسكندر البارودي الذي اكتسب شهرة في كل تلك النواحي بمهارته وأمانته في الطب والجراحة . وقد خصص أوقاتاً لمعالجة الفقراء مجاناً ، وعين يومين في الأسبوع للفقراء في عاليه ، وكذلك بسوق الغرب . فاكتسب بذلك

مزيد الثناء وحسن السمعة وعلى حضرته المعوّل في الطب والجراحة بتلك الجهات . وبالقرب من سوق الغرب قرية عيتات وفيها دار جميلة للسادات بيهم من أفاضل بيروت وأعيانها . وفي عيتات مساكن البكوات آل تلحوق الكرام . وفيها عين ماء جميلة .

وعلى مسافة وجيزة من عيتات والسوق ، شملان ، وعينعنوب ، وعيناب ، وعبيه وغيرها من القرى الجميلة الطيبة الإقليم ، الجيدة الهواء . ويرى من هذه الأماكن الحدث ، وبعبدا ، والشويفات ، وكفرشيما ، والوادي ، الخ . وكلها بلدان آهلة بالسكان ، نقية الهواء ، وأصحابها أذكياء العقول ، أقوياء البنية . تعرفت بكثير منهم ولا أزال أتذكر لطفهم وحسن شمائلهم .

وممن تفتخر الشويفات بآدابه وذكائه وعلمه وفضله النزيه اللسن المحترم اسبر أفندي شقير ، ترجمان قنصلاتو جنرالية انكلترا الفخيمة في بيروت .

وقد لبثنا في عاليه سبعة أيام وكنت أتنقل من مكان إلى مكان في القرى والمتنزهات المجاورة ، وأنا مسرور الفؤاد . ثم تركت عاليه وركبت الداليجنس وهي العربة الكبيرة التي تسافر يومياً من بيروت إلى الشام فوصلت إلى شتورة ظهر النهار . وهناك قابلتُ جمهوراً من المصريين المصطافين وغيرهم ،وشاهدتُ حضرة الوجيه الفاضل الخواجه إبراهيم داود قنصل دولة أميركا بالمنصورة ، وكان متوجهاً إلى زحلة ،فقابلنا بالترحاب والاكرام ، وقضيت ذلك النهار هناك على غاية الانشراح والسرور .

السّفر إلى دمشق

وبعد أن لبثنا في شتورة إلى اليوم التالي نفخ نفير السفر فأخذنا أماكننا في الركوب وسارت العربة تطوي أراضي سهل البقاع المشهور بجودة التربة والخصب طيّاً ، فكان إذ ذاك لبنان وراءنا وغيره من الجبال أمامنا ، وعن يميننا ويسارنا مزارع وقرى كثيرة منتشرة على مدى السهل ، (وهذا السهل من سهول سوريا المشهورة وإن كان أصغر من غيره على نوع . وهو كثير الخيرات ، وافر البركات ، يرويه ماء الشتاء فيأتي بغلات كثيرة يأخذ الجانب العظيم منها جبل لبنان وفيه كثير من الكرمة . وينبع من أراضيه أعين عديدة عذبة المياه ويمر في وسطه نهر الليطاني . ويخرج من أحد جوانبه عند قرية الهرمل نهر العاصي المشهور الذي يسير شمالاً ماراً في حمص وحماه وأنطاكية ، حتى يصب في بحر الروم قرب السويدية وفيه مدينة زحلة المار ذكرها) .

وبعد نصف ساعة وصلنا لجسر دير زينون ، وهو جسر على الليطاني وبجانبه خان للمسافرين ، ومحطة للعربة ، فغيرت العربة هناك خيولها ثم استأنفت السير فوصلنا إلى الجبل حيث يبتدىء وادي الحرير ، وهناك

محطة المصنع فغيرت العربة خيولها واستأنفت سيرها في وادي الحرير بصعود قليل (وهذا الوادي مشهور في التواريخ السورية المتأخرة لأنه جرت فيه مواقع كثيرة أيام صولة الأمراء والعشائر) وهو منفرج على نوع وقد كانت فيه غابات كثيرة من أشجار السنديان وغيره ، إلاّ أنه في هذه الأيام قد قلت كثيراً وانقطع اللصوص منه بسطوة الحكومة بعد أن كان لا يجسر على اجتيازه إلاّ الجماعات المسلحة . وبعد أن قطعناه أشرفنا على سهل الجديدة (وهو سهل صغير خصب يمتد ما بين وادي الحرير ووادي القرن) وأهم قراه قرية الجديدة ، وبعد دقائق وصلنا إلى محطة الجديدة ، وهي بناء جميل في ذلك السهل أقامته شركة العربات . وبعد غيار الخيل سرنا بذلك السهل قليلاً فوصلنا وادي القرن (وهو وادٍ بين جبلين عاليين كانا مكللين بالغابات أيام دخول إبراهيم باشا سوريا ، وأما الآن فلم يبقَ إلاّ قليل منها كوادي الحرير ، والسكة به مستوية وكان فيما سلف خطر المرور لكثرة ما كان فيه من اللصوص وقطّاع الطرق وأما الآن فنشر الأمان عليه رايته وصار كلٌّ يجتازه براحة بال وطمأنينة) وبعد أن قطعنا وادي القرن بنحو ٤٥ دقيقة انتهينا منه وأخذنا نسير صعوداً ثم باستواء وانخفاض مقدار عشر دقائق ، فبلغنا محطة ميسكون وهي تقرب من محطة الجديدة وعندها نبع ماء عذب غزير ، وبجانبها بضعة دكاكين . ورحلنا منها سائرين في أراضي الديماس وعن يسارنا قرية الديماس ، وهي قرية كبيرة تحوي على مائة وخمسين بيتاً ونيف ،وهي مبنية على مرتفع وفي ضواحيها كثيرٌ من الكرم والتين ، وفيها بضعة دكاكين ، وهي مشهورة لأنها محطة للمكارين يبيتون فيها عند سفرهم من الشام وعند رجوعهم من بيروت أو خلافها عندما يكونون آتين دمشق . والمسافة بينها وبين الشام على البهائم المحملة ست ساعات ونصف الساعة. والمدة التي يقطع بها المكارية الطريق بين بيروت والشام هي أربعة أيام وبعضهم إذا كان صيفاً وأحمالهم

خفيفة فثلاثة أيام ولكن الغالب الأول ، وأكثر النقل على ظهور البغال (هذا خلا ما تنقله عربات الشركة) . والمكاري المسافر من الشام يبيت ليلته الأولى في الديماس والثانية في خان المرج قرب دير زينون ، والثالثة في خان أبو دخان أو في محل من المحلات القريبة منه والرابعة في بيروت .
وبعد خمسين دقيقة وصلنا إلى محطة الديماس أو محطة الصحراء وهي محطة منفردة في البرية بناؤها حسن وبجانبها آبار لجمع ماء الشتاء اقامتها الشركة ، إذ لا نبع ماء هناك وأحياناً يشح ماؤها المجموع فيحضرون لها الماء من الديماس على العربات . وسرنا من محطة الديماس في سهل متسع ، لا نبات فيه إلاّ البري ، وهو يمتد من المحطة المذكورة إلى ما قرب الهامة ، وتقطعه العربة بخمسين دقيقة ، ويسمونه بالصحراء لأن أرضه أكثرها صخري لا يصلح للزراعة إلاّ قليلها . وهذه الصحراء جيدة الهواء حسنته ولذلك يتخذها العرضي الهمايوني الخامس في أكثر السنين مصيفاً له . وكان عن يسارنا ،على بعد ساعة ونصف الساعة ،وادي بردى المشهور بكثرة بساتينه ورياضه وثماره ومياهه العذبة . وعن يميننا وادي عراد بأشجاره وحدائقه ويبعد عنا ساعة ونصف الساعة أيضاً على الماشي ،وأمامنا منظر بساتين كثيرة الأشجار والنبات تأخذ مدى النظر ولا ترى نهايتها فكأن والحالة هذه لنا منظراً جمع معظم بهاء الطبيعة وكمال الحسن ، فمن جبال وسهول ورياض وأشجار الخ . وقبل أن نصل إلى محطة الهامة ، التي هي آخر محطات العربة ببضع دقائق ، انحدرنا قليلاً فدخلنا بين بساتين الهامة ورياضها الأنيقة ، فكانت البساتين عن يسارنا تمتد إلى مسافة بعيدة ، وعن يميننا أكمة قليلة الارتفاع تغشاها البساتين ذات الأشجار والنبات ، وتنحدر منها جداول الماء بصوت أوقع في السمع من نغمات العود والقيثار ، وهذا المحل فاتحة جنان الشام من هذه الجهة . وما تقدمنا في السير قليلاً إلاّ وأخذنا نسمع تغريد البلابل على الافنان ، وحفيف النسيم اللطيف بأوراق الأشجار ، فزاد إذ ذاك انشراح صدورنا ونسينا أتعاب سفرنا .

الهامة

وبعد دقائق وصلنا إلى محطة الهامة فإذا هي محاطة بالحدائق والبساتين من كل صوب ، وأمامها جدول ماء ينحدر كشلال إلى بركة صغيرة هناك يخرج منها الماء لسقاية بعض البساتين المجاورة ، وعندها مقهى وبضعة دكاكين . وتبعد عن قرية الهامة نصف ميل إلى جهة الجنوب . أما الهامة فقرية مبنية على أكمة تحدق بها الجنان من كل ناحية وفيها ١٣٠ بيتاً وهي أكبر جميع قرى ناحية سوق وادي بردى إلاّ الزبداني . ويقصدها كثيرون من أهالي دمشق للنزهة والانشراح برياضها الواسعة الأنيقة ، وهي كثيرة الثمار ومشهورة بسفرجلها الذي يكبر حجمه ويلذ طعمه جداً . وفيها كثير من غياضه وغياض الحور ، ويمر بين بساتينها نهر بردى من تحت قنطرة فيها ، وبقرب القنطرة ينقسم إلى قسمين قسم يظلّ سائراً على خطه مرتفعاً ليسقي الأراضي العالية ويسمونه نهر يزيد . وقد ذكر صاحب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ناقلاً عن التاجي أن هذا النهر احتفره يزيد ابن أبي سفيان أخو معاوية فسمي باسمه . والثاني يأخذ بالانحدار لسقاية الأراضي الواطئة ويبقى اسمه بردى .

وبعد خمس دقائق أقلعت بنا العربة سائرة مسافة بين بساتين جميلة تشرح الصدور إلى أن صار سيرنا يلحق أكمة جرداء لا تزرع إلاّ شتاء، وكان نهر بردى إزاء الطريق عن يسارنا إلى أن قربنا من الهامة ، فقسم من النهر جزء يمر من تحت قنطرة على الطريق وهذا القسم يسمونه بالنهر الديراني . ثم بعد مسافة جزئية مررنا على قنطرة كبيرة يمر من تحتها نهر بردى ، وعلى ضفة النهر بجانبها نظرنا قصر شمعايا ببهائه وإتقانه ، وفيه غرف جميلة مزخرفة مفروشة بأحسن الأثاث وثمينه ، ويسمح أصحابه للمريدين بالتنزه به ويحتوي حديقة غناء منظمة على الطرازين الشرقي والغربي ،

وموقعه عن يمين الطريق . وأمامه عن يسار الطريق قصر لزبونا أفندي ، وهو نظير الأول جمالاً وله دار واسعة مبلطة ، وبه بركة كبيرة وغرف جميلة واسعة ، وحديقة شهية ، ويسمح للقوم بالتنزه به أيضاً بإذن من أصحابه نظير الأول (ودمر قرية للمسلمين أيضاً تحتوي على مائة بيت وهي كثيرة الجنان يقصدها أهالي الشام بكثرة للتنزه وترويح النفس ببساتينها وغياضها الجميلة . وتبعد عن القنطرة ثلث ميل ، وعن قرية الهامة ميلين) . ومن هناك سارت العربة بين البساتين ، ومحاسن الطبيعة تتجلى أمامنا فمررنا على قصر الولاية ، ثم قصر المرحوم الأمير عبد القادر الجزائري المشهور ، ثم على قصر سعادة أحمد باشا الشمعة ، ثم بلغنا جسر الخشب ، فقسم نهر ثورا . وهناك تجلت لنا الطبيعة بأبهى محاسنها ، وتأكدنا صدق ما قيل بأن الشام جنة الله في أرضه حيث ضاق الوادي وصار سيرنا بين جبلين البعد بينهما نحو نصف ميل وكان نهرا يزيد وثورا يسيران بارتفاع عن يميننا في الجبل والطريق إزاء ثورا ، وعن يسارنا بردى ينساب بمائه اللجين على حصباء كالدر ، ورؤس الجبال تكللها أشعة الشمس البهية ، والأشجار على جوانب المياه صفوفاً ، وعند منفرجات الدار تجد غياضاً من أشجار الحور الشاهقة تميس كالعرائس . وخرير المياه الفائضة من نهري يزيد وثورا كان في آذاننا كنغم العيدان . والحق أن هذا الدار من الحسن على أعظم ما يمكن أن يتصوره الإنسان ، وما تقدمنا في السير إلا وقسم قسم من بردى وسار يلحق الجبل الآخر من الوادي ثم بأقنية محفورة له بالصخر ويسمونه بنهر القنوات . ثم بعد قليل قسم قسم آخر يسمونه بانياس . وكانت هذه الأنهر تنساب في مسطح الوادي بين أشجار الحور والصفصاف كالأفاعي . وبعد برهة قطعت العربة الوادي وتمنينا لو طالت المسافة لنزيد تمتعاً بتلك المناظر الجميلة ، فدخلنا إلى منتهاه حيث الربوة والمنشار ، وهناك منظر يستوقف النظر ، ويشرح الصدر لأن الصخور عند منتهى الوادي على ارتفاع شاهق

مسننة كأسنان المنشار ، ونهر بردى يسير بمرجة يحيطها ببساط سندسي ، وثورا يمر تحت صخر هائل محفور له من قديم الزمن ، ويزيد مرتفعٌ عنه ، وأرض النيرب بادية بجمالها ، والربوة على منصة حسنها وقبة السيّار على مرتفعها وجبل قاسيون بمهابته وبساتين المزة ببهجتها . وكنا نظن عند انتهاء الوادي المذكور بأن دولة الجمال الطبيعي التي شاهدناها قد انتهت بانتهائه فخاب ظننا (ونعم الخيبة) إذ أخذت تتجلى لنا على شكل جديد حيث رجعت العربة تسير بين رياض كالجنان ، مارة بين صفين متناسقين من أشجار الصفصاف المدلاة الأغصان ، ووراءهما صفوف كثيرة من أنواع الأشجار المثمرة والحور . وما قطعنا تلك المسافة ، وانتهى ذلك المكان البهي بوصولنا لصدر البان وأراضي الشرفين ، إلاّ وتجلّى لنا منظر آخر غاية في الجمال .

المرجة

وهو منظر مرجة دمشق الفسيحة المكتسية ببساط زمردي على مدى النظر ، ونهر بردى يسير في وسطها عن يسارنا ، ونهر بانياس عن يساره ، وقنوات عن يسار هذا أيضاً . وهذه المرجة من أبدع المتنزهات منها تتجلى أمامك دمشق ويلوح لك منظر مآذنها الكثيرة الشاهقة . وفي وسطها تكية عظيمة ذات مأذنتين شاهقتين بناها السلطان سليم عند فتحه دمشق ، وقد أنشأت بجانبها الحكومة مخزناً لبارود العرضي الخامس ، وآخر لخزن زيت البترول (الكاز) ، وأقيم فيها مقاهٍ ومتنزهات كثيرة وبعض منازل للغرباء (أوتيالات) . وأخذت تسير العربة في وسط المرجة المذكورة والناس على الجانبين جماعات يجمعهم داعي السرور ورباط الود وكلٌّ منشرح مسرور حتى وصلنا المحطة.وكم شاهدنا في أثناء مسيرنا من الهامة إلى دمشق عربات المتنزهين ذاهبة وآيبة تقل الجماعات على اختلاف الدين والرتبة . وعلى مدى المرجة كنا نرى من الناس ألوفاً ما بين ذاهب وآيب . وراجل وراكب ،وجالس وحداناً وجماعة ، يروحون عن النفس ،ويرشفون

كؤوس الانشراح، وكلهم مجموعون تحت راية الهدوء يربطهم الود ويجمعهم الولاء . والحق أن هذه المرجة والمسافة ما بين الهامة والشام على غاية الحسن ومنتهى الجمال.وقد وصفها كثيرون من الشعراء ، وتغزلوا بها في أوقات مختلفة كما تغزلوا بغيرها من متنزهات الشام الكثيرة وصالحيتها المشهورة التي جمعت لنزاهتها كثيراً من الأولياء والصالحين وآل الكرامات . وإذ أرى ذاتي قاصراً عن وصف ما رأيت مما تقدم ذكره فاستعين بهذا المقام ببعض ما نظمه الشعراء ليترجم عما في خاطري ، ويعرب عن ضميري .

قصيدة عبد الغني النابلسي في وصف متنزهات دمشق وأنهارها

قال الشيخ عبد الغني النابلسي المشهور في الوادي المار ذكرهُ ومعدداً أنهر دمشق أيضاً :

إن طيب الهوا هواء الوادي	فهو كالروح دبَّ في الأجسادِ
جاءنا بالعبير من كل روضٍ	فيهِ طلق الشذا بغير قيادِ
وجواري المياهِ تركض فيهِ	حولنا ركض صافنات جيادِ
أينما كنتُ منهُ تسمع صوتاً	مطرباً بـالحرير والتردادِ
ظلهُ لا يزال فيهِ ظليلاً	كلّ حين على أتم المرادِ
وطيور الغصون فيه تغنّت	بلحون لها على الأعوادِ
فكأنا وقد أتينـاهُ صبحاً	معَ ريح الصبا على ميعادِ
هو غربيٌّ جلّقٍ وهو شرق	لشموس العطاء والامـدادِ
وهو باب النسيم في الشام منه	تنفّسٌ طيّبٌ يروّي الصوادي
حبّذا حبذا مجالس أنسٍ	فيه كانت تزهو بأهل الودادِ
طاب فيها النهار حسناً وراقت	نغمات الإنشاء والإنشـادِ
ربوة الشام قد حوت مهد عيسى	مهّدتْ بسطهُ أتمَّ مهادِ
وأرتنـا بنبع أنهـار ماءٍ	سبعَ أفلاك سرَّ سبعٍ شدادِ

فيزيد الجوى ويكشف ثورا القلب عن كل لاعج مستفادِ
بردى برّدت غليليَ حتى بان يأس العذول والحسّادِ
ثم وارانيَ الرقيب فمالت قنوات من المعالي الجيادِ
وحلت مزّة الهوى بقنــاة فغزونا بها قلوب الأعادي
يا رعى الله ذي المعاهد دوماً وحماها من شر كيد الأعادي
ليدوم الهنـا لكلّ مريدٍ ههنـا سالماً مـن الأنكادِ
ان يوم الوادي ليوم لطيفٌ لست أنساهُ ان يوم الوادي

وقال في المرجة والنيربين والشرف الأعلى :

ومجلس أنسٍ فوق نهر كأنّهُ حسام من الفولاذ والمرجة الغمدُ
دعانا إليهِ البسط يوماً فهاجنا غرام كثيرٌ في الحشا ما لهُ حدّ
وبالشرف الأعلى من المرجة التي زكا عرفها خفي الهوى يبدو
ورقّ نسيم النيربين عشيـــة فمنّ بثوب حشو أذيالهِ ندّ
وقد بث ذاك النشر فينا فصافحت لطائفهُ روحاً بها ابتسم الوردُ
وصف الوربيع الغصن من جهة الربا نوافح أزهار لها الروضة الخدّ

قصيدة الشيخ عبد الرحمن الخطيب في وصف الربوة

فاحت زهور الربى كالعنبر العطرِ من ربوة الشام ذات المنظر النضرِ
والأنس راق بها حيث الجداول قد هزت ذيول الصبا أو نسمة السحرِ
والروض مدّ على أكتاف أنهرهِ سجف الزمرد في وشيٍ من الزهرِ
والطل كلل أزهار الغصون وقد شدت بها الورق بالنايات والوترِ

وقيل في النيرب :

نظمت زهوراً لؤلؤيه   أيدي الرياض الأريضيهْ
وزهت بحسن كالعرائس   في ثياب سندسيّهْ
وتمايلت أعطاف ها   تيك الغصون السمهريهْ
وتلا بها آي السرور   نسيمها وقت العشيّهْ
فتعطرتْ أرجـاؤنا   من نيرب الشام البهيهْ
وتنبهت حقل الريـا   حين المعطرة النديهْ
وتفاوضت ما بينهـا   ملحاً بأنفاس زكيهْ
فالورد من رشح الندى   نظم العقود الجوهريهْ
وأثار حمرة خـده   غمز العيون النرجسيّهْ
والزنبق المسكيّ من   نفحاته عمّ البريّهْ
والسوسن الغصن البهيّ زها بطلعتـه البهيّهْ
يحبوك من طرف اللسان   بديع أسرار خفيّهْ
يسقي بصهباء المسرة   في كؤوس عنبريّهْ
قم يا نديمي للمنى   نجن مفاكهة طريّهْ
ونجول في سحر البيـان ونظم قافية عصيّهْ
حيث الزمان ملائـم   يجري على وفق الطويهْ
حيث الحدائق جنّة   تزهو بفرش عبقريّهْ
فيها البلابل غردت   صبحاً بألحان شجيّهْ
والعنـدليب يجيبهـا   بفنون تلحين عشيهْ
والغصن من طرب يميـد يكاد يسقط بالهويهْ

وقيل في الوادي . والربوة والمنشار . والنيربين . وجبل قاسيون . وغير ذلك (موشح) :

في رياض الشام لطف وصفا   وسرور طـارد للحزنِ

وبصفوٍ من لهـا قد وصفا صادق في وصفهِ لم يمنِ

دور

يا سقى الوادي بغربي البلاد صوب مزن في رباه يهطلُ
كم به من نزهة فوق المراد ، قص الغصنُ وغنى البلبل
وجرى الماءُ لديه بامتداد حوله النبتُ الأغضُّ الأخضلُ
لو علا فوق خيال لطفـا رقـة جالبـة للفطنِ
وبمن يجلس فيهِ لطفـا كل حين تحت ظلّ الفتنِ

دور

قم إلى الربـوةِ والمنشارِ وتنشق طيب ذاكَ الـوادي
ومياه السّبعـة الأنهـارِ دافقات لارتواء الصـادي
والبساتـين أُولـو الأزهارِ نفحهـا المسكي فيها بادِ
روضها أزهر وجهاً وقفا كادت الأرض به لم تبنِ
كل من مرَّ عليهـا وقفا يتمنّـاهُ كحبّ الوطنِ

دور

يا نسيماً فـائحاً بالنيربِ بين هاتيك الروابي والرياض
عهدنا الماضي بوصل الربربِ ما لنا عنهُ وإن فات اعتياض
شرقي يا صبوتي أو غربي نحن مرضى أعين الغيد المراض
طـالما قلبي عليه رجفا خافقاً من خفق فرط مشمنِ
ذبت واويلاهُ هجراً وجفا ليت لو كنت أسير الشجنِ

دور

حبذا المرجة ذات الشرفين صادت الناس بصدر البازي

حيث فيها النهر زاهي الطرفين وهو يجري في هواها هازي
ناظراها ليس بالمنصرفين عن رباها بهجة المجتاز
قنوات ماؤها قد وكفا وعليها بان يأس المحن
بردا الرائق حسبي وكفى يا صفا سلسالها العذب الهني

دور

والحواكير التي قد نفحت في زهور الياسمين البهج
وبأرض النيربين انفتحت أعين الزهر بطيب الأرج
وزناد البسط فيه قدحت للذي يقرع باب الفرج
وعلا الخير عليه وطفا وهو غرقان ببحر المنن
ولحاظ الغيد تزهو لطفا خيرت أعين حور عدن

دور

وبقاسون وسفح الجبل وسواقي الماء من نهر يزيد
كم ضريح لنبي وولي صار منه النور يبدو ويزيد
والفتى يدرك كل الأمل دائماً في ظله ذاك المديد
والأسى والهم عنهُ صرفا وهو بالأفراح في عيش سني
ولدر الأنس أضحى صدفا في بحار البسط كالمرتهن

وقيل من موشح في بعض المحلات المذكورة :

يا رياضاً غيثها قد وكفا في دمشق الشام ذي الحسن السني
قد ملأت العين أنساً وصفا مذ نشرت الزهر والورد الجني

ومن أدواره

قم بنا نسعَ لأعلى الشرفِ نتنسم عرف ذياك النسيم
واتحف الطرف بتلك التحفِ في رياضٍ هي جنات النعيم
بصبا المرجة دائي يشتفي وشذاها يبرىء القلب السقيم
كم عليها من نسيم أشرفا بعد ما صافح شيخ اليمنِ
وعلى أدواحها قد عكفا ناشراً منها عبير السوسنِ

دور

حبذا روضات أنس بهرت بسناها إذ بدت للناظرين
ولأرجاء الروابي عطـــرت وبها قد فاح عرف الياسمين
يا لها جنات عدن زخرفت وبها كوثرها ماءٌ معين
حيث ذاك الغصن نحوي انعطفا وحباني منهُ بالعيش الهني
ومحا بالوصل أوقات الجفا ان هذا من عظيم المننِ

أما مياه الشام فأصلها نهر بردى . وقد فصلها حضرة الفاضل نعمان أفندي قساطلي في كتابهِ المسمى . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، حيث قال ما حاصلهُ : وأنهر دمشق الشام أصلها واحد مخرجهُ من جنوبي قرية الزبداني . التي تبعد عن الشام تسع ساعات ، وهذا النهر بعد أن يسير بسهل الزبداني الخصب وينتهي منهُ يأخذ بالانحدار في وادي بردى الذي كان يسمى وادي البنفسج لطيبه ووادي الذهب لغناه ، حتى يصل إلى قرية الفيجة فينضم إليه ماؤها العذب الزلالي المساوي له في الغزارة ، ثم بعد أن يسقي الأراضي والرياض على ضفتيهِ ، ويصب به أعين وينابيع كثيرة ، يصل إلى قرية الهامة ، فيقسم منه نهر يزيد ، ثم قرب دمر يقسم

منه نهر الديراني ، وعند جسر الخشب نهر ثورا ، وبعده بقليل نهر قنوات ، ثم نهر بانياس ، ثم ما يبقى يظل اسمه بردا وعند وصوله إلى قلعة الشام يقسم منه نهر عقربا وعلى ذلك تكون أنهر الشام سبعة وهي : بردى . يزيد . الديراني . ثورا . قنوات . بانياس . عقربا. وجمع بعض الفضلاء ذلك إلاّ عقربا والديراني بقوله :

شوقي يزيد ودمع الصب ما بردا   وبأن يأسي من المحبوب حين بدا
ومدمعي قنوات والعذول حكى   ثورا يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنيةٍ بالجنك جاوبهـــا   وخلها مات في خلخالها كمدا

دمشق الشام

ولما وصلت بنا العربة إلى المحطة كان هناك خلق كثير يستقبلون أصحابهم القادمين من بيروت،وما اجتمعوا إلاّ وتعانقوا عناق الفرح والإخلاص كأنهم إخوان أشقاء ، والحقيقة ما من شقيق بينهم بل جميعهم اخوان صداقة وتعارف فقط ، ربطتهم المودة فاجتمعوا تحت لوائها آمنين ، وكان انعطافهم بالأكثر على من كان غريباً عن مدينتهم ، فاستدللت ، من هذه المظاهر الودية الخلوصية الدالة على أخلاق كريمة وطباع حميدة ، صحة ما سمعتهُ وقرأته عن أهالي دمشق من خلوص النية ، وسلامة الضمير ، وصدق الوداد والرقة واللطف ، وحب الغريب والانعطاف عليه . وإذ لم يكن لي سابق معرفة بأحد من أبناء دمشق ولم يعلم أحد بقدومي بواسطة صحبي في بيروت إذ لم أشأ ذلك تخفيفاً من الثقلة وجئت دمشق متنكراً على حين غفلة فلم يأتِ أحد خصوصياً لاستقبالي . ولكن مع ذلك قد كان جميع صحب أصحابي في المركبة كأنهم مستقبلون لي وما منهم إلاّ من رحب بي ودعاني بإلحاح للنزول في محله شأن القوم الكرام .

وبعد أن ودعت رفقائي وصحبهم تقدم إليّ سليم أفندي بسراوي

صاحب نزل ديمتري كاراه المشهور ودعاني بكل لطف للنزول في نزله المذكور ، فلبيت دعوته ، فاستلم متاعي وسلمه لخدمه وسرنا معاً على الأقدام إلى قرب المحل من المحطة ، وكنا نتبادل الحديث ونشاهد الناس جماعات على الجانبين ما بين ذاهب وآيب وكلهم سائرون بهدوء وسكينة يروحون عن النفس ويتنشقون النسيم لغاية تجديد القوى ونوال الراحة من أتعاب أشغال النهار . وكانت السكة مرشوشة بالماء وبردى يسير عن يسارنا والحديقة البلدية الغناء عن يميننا وكلاهما منظر غاية في الحسن والجمال. وما انتهى بنا السير إلى آخر حديقة البلدية إلاّ وتجلت لنا سراي الحكومة وسراي المجالس العدلية وسراي البوسطة والتلغراف والبوليس يطلون على فسحة واسعة في وسطها بركة ماء ، وأمام ذلك بعض مقاهٍ وأشهرها مقهى الورد ، وكل ذلك له منظر جميل وهو على نظام شرقي محض . وكان بجانب بردى بعض الأبنية منها نزل فكتوريا وغيره من الأبنية وكلها حديثة .

ولما بلغنا نزل ديمتري وجدته على طراز شرقي محض نظيف وغاية في الترتيب والذوق . وهو عبارة عن دار صغيرة مبلطة الأرض في وسطها بركة صغيرة وبها بعض حجر تليها دار أخرى كبيرة متسعة أرضها مرخمة ترخيماً متقناً وفي وسطها بركة ماء كبيرة يتدفق منها الماء باستمرار ، وتظللها أشجار الليمون ، ويحيط بها كثير من شوالي الزهور والرياحين ، وحولها القاعات الفسيحة الواسعة مفروشة فرشاً ثميناً شرقياً ، وفي بعض قاعاتها برك ماء متدفق وفوق القاعات دورٌ ثانٍ محتوٍ على غرف كثيرة لأجل النوم . وبين القاعات إيوان كبير تجاه البركة للجلوس . وهذا النزل هو أقدم نزل في دمشق وبقي فريداً بهـا مدة طويلة وقد أنشىء من أربعين سنة ونيف ومنشئه ديمتري كاراه وقد بذل جهد الاستطاعة في إتقانه مع المحافظة التامة على النظام الشرقي في كلياته حتى نال شهرة عظيمة . وقد

نزله كثيرون من الملوك والأمراء والوزراء وأصحاب المقامات من أوربيين وأميركان وأتراك وغيرهم وكلهم سروا به .

وبعد أن استرحنا ونفضنا غبار السفر ، أتينا خوان الطعام فإذا عليه ما لذّ طعمه من الأطعمة الشرقية والغربية والفواكه الدمشقية اللذيذة ، فأكلنا بلذة وذهبنا إلى الإيوان فلبثنا برهة ندخن ونشنّف السمع بصوت خرير الماء المنصب في الحوض (البركة) وبأنغام الطيور المغردة على الأشجار ثم ذهبت إلى حجرتي أطلب الراحة بالنوم من أتعاب سفر النهار .

ولما توسدت فراشي ، أخذت أفكر كيف أصرف أيام سياحتي في هذه المدينة ، ولا رفيق ولا أنيس خصوصياً لي بها ، وتصورت الوحشة ، فقلت في نفسي قد عملت على خلاف الحكمة بعدم طلبي من أحد أصحابي في بيروت أن يعرفني الى أحد في دمشق ليكون لي أليفاً آنس به . وقلت مهما كان أهل دمشق من الطبقة العالية من الأنس واللطف وحب الغريب فكيف أجد سريعاً بينهم خليلاً أصطفيه وآنس به وأنا لا أعرف أحداً منهم ، وأيام إقامتي بينهم معدودة على الأصابع . ثم أرجع فأقول ان لك أعظم أنيس وسمير في المناظر الطبيعية وبهجة غوطة دمشق المشهورة ، إذا عز عليك إيجاد خل في مدينة وصف أهلها بكل مزية حسنة وشيمة رضية . وبينما أنا في هذه الأفكار أرددها غلب عليّ النوم فنمت نوماً مريحاً ، ونهضت في الصباح مستريحاً . وبعد مناولة الطعام جلست على الإيوان وأخذت كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لمؤلفه الفاضل نعمان أفندي قساطلي كي أستطلع منه أحوال المدينة وما حوته ، ومن ثم آخذ بزيارة أماكنها ، واستطلاع شؤونها تباعاً (وهذا الكتاب حوى تاريخ دمشق منذ نشأتها لغاية سنة ١٨٧٩ م . وبه ذكرت أوصافها من صناعة وتجارة وعلم وبناء ومعابد وآثار وعوائد وغير ذلك بترتيب سهل . وقد

حوى تفاصيل من مات ودفن بها من أهل البيت والصحابة والأولياء والعلماء الأعلام والصالحين مع ترجمات قصيرة لكل منهم . ولمؤلفه اعتبار بين قومه الدماشقة لما كتبه من الكتابات الكثيرة المفيدة وخصوصاً في الآداب وأحوال بلاده وأسباب ترقيها ونهوضها وغير ذلك) . وبعد أن طالعت كثيراً في الروضة الغناء وفهمت الكثير عن أحوال دمشق وتاريخها وأوصافها صممت على الذهاب والتجول في المدينة .

وبينما أنا على نية ما ذكر إذ جاءني زائراً حضرة العالم العلاّمة فضيلتلو عبد المجيد أفندي الخاني النقشبندي المشهور ، فصرفنا وقتاً بحديث أرق من النسيم وألطف ، وقد سررت بفضيلته غاية المسرة لما هو عليه من اللطف وكمال الإنسانية والعلم وسعة الاطلاع والمعرفة ودماثة الأخلاق ورقة الطبع . وبعد ذلك أخذ يزورنا الناس تباعاً وما أرى منهم إلاّ كل لطيف أنيس . وممن زارنا في ذلك اليوم أصحاب العزة جبران أفندي اسبر وجبران أفندي شامية وسليم أفندي غزي وغيرهم كثيرون . وقد تجولنا في المدينة ، وفي المساء ذهبنا لبعض المتنزهات وما وصلنا إلى المساء إلاّ وانتفى ما كنت أتصوره من الوحشة وصرت في المدينة كأنني بها منذ سنين ،فزدت حينئذ تأكداً بما قيل عن دمشق وما ذكر عن لطف الدماشقة وأنسهم وحبهم للغريب الأمر الذي امتازوا به .

وفي اليوم التالي اجتمعت الى جناب الحسيب النسيب فضيلتلو السيد عبد الخالق أفندي السادات إذ كان وقتئذ في دمشق وجاءها قبلي وحدثني عما رآه من القوم وألطافهم وحسن أخلاقهم وكان شاكراً حامداً ممتناً ، وبعد اجتماعي بسيادته كنا نصرف غالب الأوقات بالمسرة والهناء متجولين في المدينة وزائرين متنزهاتها الكثيرة ومعابدها الجميلة العديدة ، وكنا حيثما توجهنا وأينما سرنا لا نصادف إلاّ المؤانسة وحسن المعاملة بنوع يزداد به اعتبار الدمشقيين ويرتفع مقامهم في أعيننا .

وقد قابلنا هناك حضرة البرنس إبراهيم باشا المصري فإذا هو نظيرنا حامد القوم شاكرهم . وكذلك شاهدنا الخواجه ميخائيل قطه أحد التجار السوريين المصريين جاء الشام لزيارة أهله وخلاّنه وقضاء فصل الصيف .

وما طالت الحال إلاّ وتعرفنا بكثيرين من أعيان البلاد ووجوهها منهم : دولتلو أفندم مشير العرضي الهمايوني الخامس ، ولما زرته برفقة رفيقي السيد عبد الخالق السادات رأينا منه كل إنسانية ولطف وخرجنا شاكرين حامدين . وممن زرناهم وزارونا محمد آغا الجيرودي وعبد المجيد أفندي نابلسي والياس بك قدسي والسيد محمد الجلاّد وآل عظم الكرام وآل عطار الفحام وآل حناوي وغيرهم كثيرون . وقد زرنا بيت صالح بك العظم وأخيه عبد الله بك وبيت شمعايا وبيت جبارا ويوسف أفندي بين باشي أمين النزل . وزرنا من المعابد أشهر الجوامع والكنائس والمدارس القديمة وكثيراً من مدارس التعليم . ومن الحمامات أشهرها ، وجبنا المدينة كلها وزرنا متنزهاتها وقلعتها وكل ما هو شهير فيها ، وزرنا الصالحية ومقام أبو يزيد البسسطامي ، ومحيي الدين العربي ، والشيخ عبد الغني النابلسي ، ومقام الأربعين . ومحلة أهل الكهف ، وغير ذلك . وإذ كان تعرضنا لذكر أوصاف دمشق وآثارها ووصف ما زرناه منها كلاً بمفرده وبحسب وقت زيارتنا له يجعل الفائده غير مستوفية أشرنا لذلك إجمالاً هنا وسنأتي على تبويبه وتفصيله فيما يأتي .

موقع دمشق الجغرافي

وقدمها وألقابها وعدد سكانها

دمشق أكبر مدن سورية ، وموقعها في أواسط البلاد حيث الطول الشرقي ٣٠َ و ٣٦ْ والعرض الشمالي ٢٠َ و ٢٣ْ وهي إلى الشرق بانحراف إلى الجنوب عن مدينة بيروت ، وتبعد عنها ١١٢ كيلو متراً ، وتعلو عن سطح البحر ٢٤٠٠ قدم انكليزي ومحيطها تسعة أميال ونيف .

وهذه المدينة كثيرة المياه والبساتين ، وموقعها في سهل خصب جداً في غوطة تُعدّ من أفضل جنان الدنيا ، وإلى شماليها جبل قاسيون يزيدها بهاء ونضارة فتصبح كجنة تجري من تحتها الأنهار . فيها كل أنواع الفواكه والبقول وكل ما تشتهيه نفس الإنسان من مأكول ومشروب ومشموم ونزهة وانشراح . وبالنظر إلى ذلك ، وإلى ما انطبع عليه أهلها من حسن السجايا ولطف الطباع ، حُسبت جنة في الأرض وفضّلت بأشياء كثيرة على سواها من البلدان ، وهذا شأنها منذ الأعصر الغابرة إلى الآن . قال أبو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور : متنزهات الأرض الأربعة. سغد سمرقند. وشعب بوّان . ونهر الأبلّة . وغوطة دمشق . أما سغد سمرقند فهو نهر تحف به أشجار مثمرة بالفواكه والأزهار وهي مشتبكة بعضها

ببعض ممتدة مقدار اثني عشر فرسخاً . وأما شعب بوان ففي نواحي نيسابور فهو مقدار فرسخين فيه أنهار متدفقة وأشجار مثمرة طيبة . وأما نهر الأبلّة فهو من أعمال البصرة وهو على أربعة فراسخ منها وعلى جوانبه الأشجار الطيبة الثمار . وأما غوطة دمشق فهي أفضل الجميع ومقدارها ثلاثون ميلاً ، وعرضها خمسة عشر ميلاً ، وهي مشتبكة بالأشجار كأنها بستان واحد لا تكاد الشمس تقع على أرض فيها ، وثمارها طيبة لم تكن في غيرها . وقال الرحالة أبو الحسين بن جبير الأندلسي يصفها : « وأما دمشق فهي جنة المشرق . ومطلع نوره المشرق . وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي احتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين . وتجلت بحلل سندسية من البساتين . وحلّت في موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت منصتها أحسن تزيين . وتشرفت بأن آوى المسيح وأُمه إليها إلى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل . وماءٌ سلسبيل . تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . وقد سمت أرضها كثرة الماء . . ى حنت إلى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر . والأكمام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها امتداد البصر . فكل موقع لحظٍ بجهاتها الأربع نغوته اليانعة قيد النظر . ولله درّ القائل فيها إن كانت الجنةُ في الأرض فدمشق لا شك هي هيا . وإن كانت في السماء فهي تساويها وتحاذيها . اه . » . قلت : ولقد أصاب ابن جبير الرحالة بما قال إلاّ أنه فاته وصف الأشياء الكثيرة في محاسنها نظير بهائها في الصباح والمساء وأيامها المعدودة وما شاكل ذلك . وما هذا التقصير إلاّ لقصير عهد إقامته بها . وقد جاء الأقدمون بالشيء الكثير عن وصف موقعها ، وتعداد بهجتها ونضارتها ، ولطف أهلها ونظافتهم وحبهم للغرباء ، مما يطول شرحه ، ويدلنا على أن أخلاق الدماشقة وحسن مدينتهم كانت منذ الأيام الأولى موضوع اعتبار الناس وثنائهم .

وكان الأقدمون قدّروا هذه المدينة وحسن موقعها قدرهما وقد حذا حذوهم المتأخرون أيضاً، فإنك لا تطالع كتب السياح وأصحاب الجغرافية إلاّ وتجد بها الكلام الطويل عن محاسن هذه المدينة وتعداد أوصافها . فمن ذلك ما قاله (بوجولا) الرحالة الفرنسوي الشهير ، في كتابه سياحة الشرق، فإنه بعد أن عدّد ما رآه بها ووصفها وصفاً يقرب من وصف ابن جبير المار ذكره قال : طوبى لمن يسعده الحظ ، وتوافقه السعادة ، ليصرف أيام عمره في هذه المدينة الجنة الأرضية . وقال صاحب تاريخ سورية : « دمشق بعد أسلامبول وأزمير أشهر مدينة في المملكة العثمانية ، وفيها من الحمامات والسرايات والجوامع الهائلة البناء ما ليس بيسير ، وان هذه المدينة محاطة بكل ما يقدر المؤرخ أن يعدهُ من عجائب الطبيعة . فإن العين تشاهد حيثما تنظر مراسح بهجة ، وغياضاً واسعة ، ومياهاً جارية ، بتلك الحدائق الجميلة النامية في وسطها أنواع الأزهار الشرقية ، وبحيرات مع ينابيع عظيمة تتدفق منها المياه الفضية اللون ، محمية بالأشجار الجميلة تكسب المدينة رونقاً جميلاً . آه » . فموقع هذه المدينة الجغرافي وما هو عليه من الخصب والنزاهة وغزارة المياه والغنى الطبيعي وما كانت عليه من حسن الموقع التجاري قبل أن تسير البواخر في البحار قد جعل هذه المدينة عظيمة معتبرة منذ نشأتها إلى الآن ، وضمن راحة سكانها وغبطتهم مع كثرة ما انتابهم من الحروب ومغازي الغازين . وستلبث كذلك إلى ما شاء الله إذا مُدّت منها وإليها الطرق الحديدية واتصلت بالعراق والحجاز والموانيء البحرية . وهذه المدينة من أقدم مدن العالم الباقية عظيمة إلى وقتنا باجماع آراء المؤرخين والباحثين . وللمؤرخين مذاهب وأفكار كثيرة بخصوص أول من بناها ووضع أسسها ، ولكن كلها لم تسند إلى إسنادات مكينة . والمرجّح منها هو ما نقله يوسيفوس المؤرخ الشهير بأن دمشقيوس ابن كنعان هو بانيها، ومع ذلك ان ما يعوّل عليه هو أنها كانت مدينة مشهورة

في أيام سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، وذلك منذ نحو ما ينيف على مدة ثلاثة آلاف وثمانمائة سنة . وقد بحث صاحب الروضة الغناء في مذاهب المؤرخين في من بنى هذه المدينة وزمن تأسيسها وكانت نتيجة بحثه عدم الارتكان على تلك المذاهب الكثيرة ، وخلاصته أن ما يمكن الجزم به هو أنها كانت مدينة مشهورة في أيام سيدنا إبراهيم كما مرَّ يوم طارد آسري لوط ابن أخيه إلى حوبة الواقعة شماليها وذلك حدث سنة ١٩١٣ قبل التاريخ المسيحي .

وتلقب دمشق بجيرون وجلّق والفيحاء والشام وأما دمشق فأقدم أسمائها وما زالت تلقب به إلى الآن ، مع أن اسم الشام غلب عليها ، وقد عللوا سبب تسميتها به بعلل كثيرة لا حاجة إلى ذكرها . وأما لقبها بجيرون فلم يطلق عليها كثيراً وله تعليلات لا تفيد المقام . وأما جلّق فيظهر بأنه كان لقباً معروفاً لها عند العرب الأقدمين ولاسيما في أيام عرب غسان وقد وردت في قصائدهم فمن ذلك ما جاء في قصيدة حسان بن ثابت الأنصاري التي مدح بها آل جفنة الغسانيين . وأما لقب الفيحاء فربما لقبت به لاتساعها . وأما الشام فهو اسم لكل سورية وبما أن دمشق عاصمتها وأكبر مدنها وأجملها وأفضلها فقد أُطلق عليها وما زال إلى الآن يطلق عليها لوحده أو مقروناً مع دمشق فيقال الشام ، أو دمشق الشام .

أما سكان هذه المدينة فمن أجناس مختلفة ولكن أغلبهم من الجنس العربي ويبلغ عددهم مائة وخمسين ألف نفس منهم إسلام سنية نحو من مائة وعشرين ألفاً ، وشيعية أربعة آلاف وخمسمائة ، ودروز وعلويون الفان وخمسمائة ، ونصارى من كل الطوائف ١٦ ألفاً ، ويهود خمسة آلاف. وأما الأجانب بها فقلائل حيث لا يبلغ عددهم الأربعمائة نفس ولكن

فيها من المغاربة ما يزيدعلى الأربعة آلاف ،ومن الأكراد ستة آلاف ، ومن الإيرانيين نحو من ستمائة ، والأرمن نظيرهم والسريان ثلاثمائة ، والباقي من الجنس العربي .

أهالي دمشق وأخلاقهم

يصعب على المدقق إلحاق طوائف أهالي دمشق الآن بأجناسهم الأصلية لكثرة ما تقلب على هذه المدينة من الأحوال التاريخية ، إلاّ أن الراجح الأكيد هو أن اليهود منهم من أصل عبراني لأن الملّة اليهودية لم يدخل بها أجناس غريبة منذ تاريخها الأول ، والمسيحيين من أصل يوناني وروماني وسرياني وعربي أي من الأجناس التي كان منها سكان البلاد يوم الفتح الإسلامي . ولا يتبادر إلى الذهن أن العرب الذين يؤلفون شيئاً من العنصر المسيحي في دمشق هم من العرب الفاتحين ، فإن الفاتحين لم يعتنق أحد منهم المسيحية بل هم من عرب غسان الذين كانوا مسيحيين يوم فتح الإسلام الشأم في صدر الإسلام وكان في دمشق عدد عديد منهم . وأما المسلمون فمن الأجناس المؤلف منها المسيحيون لأنه كما لا يخفى بأن العدد العديد من الأهالي يوم الفتح وبعده قد اعتنقوا الإسلام . وقد اختلط بالإسلام كثيرون من العرب الفاتحين الذين استولوا على البلاد، كما أن هذا الخليط قد امتزج بمن ولي دمشق من الأجناس الإسلامية فيما بعد ، إلاّ أن توالي السنين وعدم خروج دمشق من يد الإسلام منذ فتحها العرب إلى الآن ،

وانتشار اللغة العربية فيها جعل جميع سكانها عرباً يغارون على لغتهم الشريفة ويجلونها ويعتبرونها ، ولولا اللغات الطقسية كاليونانية والسريانية واللاتينية والعبرانية التي يستعمل النصارى الثلاث الأول منها في خدمة طقوسهم الدينية ، واليهود الأخيرة في عباراتهم ، لما وجد في دمشق وضواحيها أثر لغير اللغة العربية إلى حين استيلاء العثمانيين على البلاد ودخول اللغة التركية بين أهلها . وما وجد غير هاتين اللغتين أعني العربية والتركية لحين دخول اللغات الأجنبية في البلاد في هذا الجيل بسبب مداخلات الأجانب والاختلاط التجاري والشعبي الذي حدث بجيلنا لقرب المواصلات وتسهيل الأسفار .

أما في الوقت الحاضر فالأهالي كما ذكرنا يؤلفون من عرب ،ومغاربة ، وأكراد ، وأتراك ، وأرمن ، وسريان . أما المغاربة والأكراد والترك وبعض الأرمن والسريان فمسلمون . وأكثر المغاربة هاجروا إلى دمشق من عهد قصير أي منذ جاء إليها واستوطنها المرحوم الأمير عبد القادر الجزائري الشهير ولربما هذا العهد لا يتجاوز الأربعين سنة. وأما الأكراد فجاؤوها من كردستان أولاً تجار غنم ثم لغاية أن يدخلوا سلك الضابطة ، ولما تقدم بعضهم واتسع رزقهم وارتفعت مراتبهم ، وكان الدماشقة يؤهلون بالغريب ، ومدينتهم كثيرة الخيرات والبركات ، غزيرة الطيبات ، سهلة المعاش ، تزايد عدد الواردين إليها من الأكراد واستوطنوها وصاروا أصحاب نفوذ فيها واتخذوا لأنفسهم محلة في صالحيتها بسفح جبل قاسيون يسمونها بحارة الأكراد ، وقد صارت هذه المحلة عبارة عن مدينة صغيرة . ويذهب العارفون بأن مهاجرة الأكراد لدمشق يعاصرها مهاجرة المغاربة أو أنها بدأت قبلها بقليل . وأما الأتراك فأخذوا بالتردد إليها منذ استولى عليها السلطان سليم ، وفي الغالب لا يلبث بهـا دائماً إلاّ القليل منهم لأنهم يأتونها موظفين وعند انتهاء مدة توظفهم ينقلون لمحلة أخرى أو يهجرونها . وأما الأرمن والسريان فغالبهم من النصارى جاؤوها بأوقات

مختلفة واستقروا بها ، وبعد حرب الروس الأخيرة جاءها كثيرون من الجراكسة ومهاجرو الروملي واستوطنوا بها . أما المغاربة والأكراد فمحافظون على جنسيتهم ، ولكن الأولين قد مازجوا الأهالي بعض الممازجة وسبب ذلك وحدة اللغة . ولكن جميع هذه الأجناس قد تخلقت بكثير من أخلاق الأهالي واتفقت معهم في معظم الصفات الحسنة .

أما أخلاق الدماشقة بالإجمال فحسنة رضية وهم يوصفون بالكرم واللطف ، كما تقدم ، ويميلون إلى السلامة والسكينة والتودد ، ويحبون الانشراح والسرور ، وهذه الميول نجدها بكل طبقاتهم ومراتبهم متأصلة تأصيلاً فلذلك تجد الوقائع قليلة بهذه المدينة بالنسبة إلى غيرها من المدن الكبيرة ومعظم حوادثها تجري خارج المدينة بين بعض رجال الطغمة الواطئة الذين يسمونهم معترين ، وهؤلاء الرجال مع ما هم عليه من الشدة يتصفون بالمروءة والإنسانية ، وقلما تراهم يقومون بشكلٍ مع غيرهم لاعتقادهم بأن ذلك حطةً في مقام من كان فتيّاً ، وإذا تحامل عليهم أحد من غير طغمتهم في أثناء الأخذ والعطاء يحتملونه ويلاطفونه ويتلافون الأمر معه بالتي هي أحسن ، وإذا اجتمع أحسن منهم في المدينة مع خصم له من طبقته لا يحرك له ساكناً ، وأما خارج المدينة فلا عتب عليه بالتصدي له . ولولا هذه الطغمة لكانت المدينة على غاية ما يكون من السكينة . ومما يسر أن الحكومة باذلة جهدها في السعي في ما يؤول لمنع أسباب المشاكل بين هؤلاء الجماعة . وقد قال صاحب الروضة الغناء بإصابة في أطوار الدماشقة : « إن الدماشقة قوم أمناء ذوو شهامة وناموس ودعة ومؤانسة ، رقيقو الطباع حسنو المعاشرة سليمو النية والطوية ، كرماء يحبون الغرباء ويكرمونهم ، ويميلون إلى السلام ويرغبون في البسط والانشراح ، ولو لم يكن في دمشق بعض الأشقياء الذين يسوّدون اسم مدينتهم بما يفعلونه من الجرائم لساغ أن نقول بأن كل الأهالي في مقدمة السوريين في حسن الأخلاق .اه » .

وإذا قصدت شراء شيء من دمشقي رأيت منه المؤانسة والملاطفة ، ولا تكاد ترى بين الباعة مَن هو على خلاف ذلك وشيمته المهاترة بالمشتري والجفاء له في القول . وإن وجد فنادر ، والنادر لا يقاس عليه . وهذا يدلك على حقيقة أخلاق الجماعة ، فإن المعاملة أعظم مظهر لصفات المرء . وإذا سألت أحدهم عن مكان وكان يعرفه هداك إليه بغير تكلف ، وإذا كان لا يعرفه ساعدك بسؤال غيره وأوصلك إلى قصدك وربما إذا كنت تجهل إشارات المحل أوصلك إليه بدون أن يكلفك منة ، وإذا رآك غريباً زاد في تفهيمك وإرشادك ، وإذا سار معك لهدايتك أذهب مللك بالحديث والملاطفة ولا يتقاضاك بارة الفرد لأجل تعبه في إرشادك ، وهذا من دلائل كرامة الأخلاق أيضاً .

وإذا بحثنا عن أخلاق الدماشقة وصفاتهم رأيناها ناجمة عن أسباب رئيسية تأصلت فصارت ملكة . فمنها :

أولاً : كثرة خيرات المدينة وتمتع الأهالي بها .

ثانياً : الصفات العربية المجيدة المشهورة التي انتشرت في هذه المدينة منذ القدم .

ثالثاً : حسن موقع المدينة التجاري لحين فتح ترعة السويس .

رابعاً : وجود الأعمال بسهولة لكل طبقة وفردٍ من السكان .

خامساً : كثرة متنزهات المدينة .

فإن الأول جعل الناس جميعاً شبعانين غير مشتهين شيئاً من كل ما تتوق النفس إليه ، فولّد ذلك فيهم خاصة المكتفين ، وصرت لا ترى نفساً بينهم تشتهي شيئاً. والثاني أوجد بهم خاصة الكرم والشهامة وحب الغريب الخ . وكان الحجاج يفدون كل سنة إليها بكثرة ، ويباع من البضائع التي

تعمل فيها أو التي ترد إليها شيئاً كثيراً ، فزادت ثروة الأهالي وراحة البال ووجد عند الناس الميل للانشراح والسرور والاجتماع في المتنزهات والرياض ، وهذه الاجتماعات المؤلفة من أناس مكتفين شبعانين ولّدت عندهم لطافة الأخلاق . ولا يخفى أن الأنسان يعمل في دنياهُ لكفايته **أولاً** ، وثانياً لمسرته . وإذ كانت دمشق كافية أهلها ولا سيما في الأيام الغابرة كانوا ، وما زالوا ،أصحاب الصفات المتقدم ذكرها . وهذه الكفاءة أوجدت عندهم الميل إلى السكينة وحب السلام وسلامة النية والضمير . فإن الإنسان عندما يكون مقلاً خالي الأشغال يميل إلى الحركات والمشاكل ، وعندما يكتفي يتغير ويصير ميالاً للسلام والسكينة . (وهذا نرى له شواهد كثيرة كل يوم) وعندما يصل إلى هذه الدرجة تجود يداهُ ويرغب في مصادقة الناس واستصحابهم ، وهذا على ما نظن كان سبباً لتحسين أخلاق الدماشقة . وقد ساعد على استمرارهم عليها الأجيال الكثيرة اتباعهم التمدن الشرقي وملازمته لأن عدم التنقل من حالة إلى أخرى يضمن بقاء الحالة ، كما لا يخفى ، ويمنع أضراراً كثيرة ويوفر النفقات . والدماشقة متفاوتون في درجات الثروة والمعرفة كغيرهم من سكان المدن الكبيرة إلاّ أنهم جميعاً متمتعون بلذة العيش وطيبه ، وما تجده من الفرق الظاهر بين الناس في مدن اخرى لا تجده في دمشق. فإن الدماشقة جميعاً متمتعون بلذة المآكل على السواء ، فإنه لكثرة وجود المأكولات اللذيذة ورخص أثمانها أمكن الفقير أن ينالها بسهولة كالغني . وكذا القول في ترويح النفس فإنه إذ كانت المتنزهات كثيرة جداً وقريبة والنفقة بها قليلة أمكن الكل الانشراح أسوةً ببعضهم. وكذا يمكن القول في الملبس فإن ما يلبسه الغني يمكن الفقير أن يلبس مثله تماماً ، إلاّ أن التفاوت بين الغني والفقير في ذلك هو أن الغني يمكنه أن يقتني ملابس كثيرة ، وأما الفقير فلا يمكنه كثرة التعداد من ذلك .

ومن أخلاق الدماشقة الميل إلى النظافة وقد بلغوا بها الغاية في ملابسهم

وداخل بيوتهم وأجسامهم . وقد ساعدهم على ذلك كثرة المياه وغزارتها ووصولها إلى كل بيت ومحل من مدينتهم ، وكونها مجانية لا ثمن لها . أما الطرق فنظيفة أيضاً ويساعد على نظافتها أصحاب البساتين فإنهم كل يوم يرسلون مثابتا من خدمهم مصحوبين بالبهائم لجمع القاذورات على انواعها لاستعمالها سباخاً للأراضي ، ولولا ذلك لكانت المدينة ملزومة بصرف مبالغ طائلة جداً لأجل نظافتها . ولم تكن النظافة مقصورة على أهالي المدينة فقط بل أنها موجودة عند الفلاحين أيضاً فإن بيوت أهالي القرى وأثاثها نظيفة حسنة . ويساعد على النظافة عدم وجود أحد حافياً فإن الكل من نساء ورجال وأولاد يكرهون عادة السير حفـاة حتى الفلاحين وأدنى مراتب السكان . وأينما سرت في المدينة تر الدكاكين نظيفة مرتبة وملابس الناس كذلك ولا سيما أُزر النساء وليس ما يشكى من مسألة النظافة في دمشق إلاّ بعض المحلات التي يسكنها فقراء اليهود ، ولولا النظافة التي يعتبرها الدماشقة من الإيمان ، كما هي بالحق ، واعتناؤهم بها اعتناء شديداً ، وجودة هواء المدينة وحسنه ، لكانت دمشق مدينة ردية المناخ لكثرة مياهها . ومما يساعد على النظافة أيضاً حسن مجاري المدينة وانتظامها . فإن هذه المجاري مرتبة ترتيباً حسناً منذ الأيام القديمة ، والأهالي دائماً يحافظون على سلامتها وانتظامها ، وهذه من جملة المآثر التي تدل على تمدن الشرقيين وحضارتهم .

الجمال في دمشق

تفاوت الناس في دمشق ثروة ومعرفة لأنهم تساووا جمالاً وظرافة . فالجمال وزع بينهم توزيعاً عادلاً فكان في جميع مراتبهم وطبقاتهم على السواء ، وقد ازداد رونق جمالهم بنظافتهم ولطف طباعهم . وقبيح المنظر نادر بينهم وقبحه بالنظر إليهم . وهم ، في الغالب ، معتدلو القامات ملتفو الأجسام والطول والقصر نادر بينهم ، حسنو البنية والتركيب ، أقوياء العضلات ، بيض الألوان ، وجوههم غالباً مستديرة أو طويلة قليلاً ، يغلب على عيونهم الشهلة والسواد ، والزرقة قليلة ، وشعورهم سوداء أو شقراء قليلاً مسترسلة أو جعداء ، وأنوفهم ومباسمهم جميلة . وبالإجمال يحسبون بطبقة عالية بالجمال بين الشرقيين وقد حسبهم آل السياحة مثال الجمال الشرقي حيث قالوا « ونساؤهم أجمل من رجالهم وهن قويات البنية ، صحيحات الأجسام ، لأنهن يلازمن العمل في بيوتهن كل يوم ، ومن كانت غنية لا تتكل في أعمال بيتها وترتيبه على خدمها بل على نفسها . وهذا مما يزيد جمالهن ويقوي أجسامهن وكثيرات من غير الفتيات منهن يشتغلن في مهن بيوتهن .

ويظهر ان دولة الجمال قديمة العهد في هذه المدينة وكذا القوة وعادة خروج النساء لمشترى ملابسهنّ بدليل ما كان مكتوباً على قبة باب البريد الشاهقة : « باب البريد سوق من أشهر أسواق دمشق تباع به الأنسجة الغالية على أنواعها وهو أشبه بالموسكي بمصر من حيث بضائعه وتردد الناس إليه » وهو :

عرّج ركابك عن دمشق فإنها   بلد تذلّ له الأسود وتخضعُ
ما بين جابيها وباب بريدها   قمر يغيب وألف بدر يطلعُ

والحق ان من يمر بباب البريد والأسواق حوله حيث تباع المنسوجات حتى باب الجابية يشاهد معرضاً من الحسن يستوقف الأبصار حيث يرى القوم مترددين زرافات زرافات ما بين أغيد وغيداء . نعم ، إن نساء الدماشقة يسبلنَ المناديل على وجوههنّ ويأتزرنَ بالأزر ولكن ذلك لا يحجب بهجة جمالهنّ تماماً . فسبحان من يخلق ما يشاء وينعم على عباده بما يشاء » انتهى.

لغة الدماشقة

لغة الدماشقة لينة رقيقة ، ولهجتهم حسنة لطيفة توافق طباعهم ، إلاّ أنه فيها كغيرها من لغات أهالي المدن والأمصار العربية شيء كثير من الألفاظ غير الفصيحة ، وبعض التراكيب المخالفة لقواعد اللغة العربية الفصحى ، ولا عجب بذلك فإن هذا شأن اللغات الواسعة في كل المدن والأمصار في كل الأزمان والأجيال . وقد وجد مثل ذلك في اللغة العربية الشريفة منذ أجيال الجاهلية ولولاه لما كانت لغة قريش أفصح لغات العرب. وقد كنت ترى في لغة كل قبيلة من قبائل العرب تقريباً من الألفاظ والسمايات وبعض التراكيب ما لا وجود له في القبيلة الأخرى هذا فضلاً عما وجد في بعض لغات القبائل من الألفاظ الأعجمية التي دخلت العربية صحيحة أو مشوهة وتمادى العهد عليها فصارت تحسب كألفاظ عربية (وهذا التباين في الألفاظ وجد في اللهجات أيضاً) وهذا سبب وجود الأسماء الكثيرة في لغتنا العربية وغيرها لمسمّى واحد . ولما اتسع نطاق سطوة العرب وامتد نفوذهم ، وانبسطت أملاكهم ، وكثّر تداخلهم بالأمم الأخرى العربية وغير العربية كثّر التشويه في اللغة ، مما صار معه خطر عليها فجمع قاموسها

ووضعت قواعدها، ومع ذلك لم يكفل هذا العمل نطق جميع من يلفظون الضاد بلغة واحدة ولهجة واحدة، إلاّ أنه حفظ سلامة اللغة إلى ذلك العهد، وعليه صار للعرب لغتان مختلفتان عن بعضهما اختلافاً كبيراً لا يشعر بمقدار حقيقته تماماً إلاّ غريب اللغة ومن يقرأ مقالة مكتوبة بلغة عامية صرفة . فالأولى لغة فصيحة وهي التي نكتب بها كتبنا ومؤلفاتنا، والثانية لغة عامية كثيرة الاختلاف والشعاب وهي ما ينطق به أهالي كل مصر على حدة ويستعملونها في محادثاتهم وأخذهم وعطائهم . وكل مصر لغته عزيزة عليه ومفضلة لديه عما سواها وإن كانت أكثر تشويهاً وخللاً ، فوالحالة هذه لا يمكن الحكم بأفضلية لغة أهل مصر عن آخر إلاّ بأمرين الأول : رقة ألفاظ اللغة وقربها من الذوق وعدم نفور السمع منها والثاني : قربها من اللغة الفصيحة أكثر من غيرها . وبخلاف ذلك لا يمكن نقد أصحاب لغة عامية على أصحاب لغة عامية أخرى . وإذا نظرنا إلى لغة الدماشقة رأيناها مشوهة كغيرها وفيها من الألفاظ والاصطلاحات ما لا يوجد بغيرها إلاّ أنها رقيقة يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع وهي قريبة من اللغة الفصحى أكثر من كثير غيرها من اللغات .

الهيئة الاجتماعية في دمشق

الهيئة الاجتماعية في هذه المدينة على حالة حسنة رضية . فإن الناس على اختلاف مذاهبهم وشدة تمسكهم بأديانهم يعيشون مع بعضهم بالتودد والإلفة ويطبقون سلوكهم على مبادىء السلام والحب ، ويتعاملون بالحسنى . وقد ازداد ذلك بينهم توثقاً بعد حوادث سنة ١٨٦٠ ، التي كانت نقطة سوداء في تاريخ مدينتهم ، وقد صاروا الآن لا ينظرون لاختلاف الدين بل إلى جامعة الوطن ووحدة التبعة وكلهم عالم بأن سعادته وراحته موقوفتان على إخلاصه لدولته وأخيه في الوطنية . ولذلك كنا نرى لسان حال كل منهم يقول :

إذا اختلفت مذاهبنا فإنّ الحب جامعنا

وأما في مجتمعاتهم العمومية والخصوصية فلا تراهم إلاّ مرتبطين بربط الوداد والسكينة يحترمون بعضهم بعضاً وكلٌّ يراعي أحاسيس أخيه بما يدل على أدب صحيح وتمدن أكيد ، ولذلك لا ينجم عن اجتماعاتهم ، حتى ولا التي يجتمع بها ألوف من الخلق ، مخاصمات وقلاقل ، وإن حدث ، في

بعض الأحيان ، شيء فذلك افرادي لا عبرة له وهو مما لا تخلو منه مدينة من أعظم مدن العالم تمدناً وحضارةً .

وما سكن كل ملة منهم بمحلة لوحدها منفردة عن الأخرى بناجم عن تباغض وتنافر بل هو اتباع لتقاليد قديمة وميل طبيعي برغبة الإنسان السكنى مع آله وذويه،ولا نحصار المدينة،وتسهيل مسائل العبادة فإن معابد كل ملة قائمة في محلتها ، فإن سكن مسيحي مثلاً في محلة المسلمين بعد عن كنيسته والمدينة كبيرة فصادف من المشقة والعناء شيئاً كثيراً ولاسيما في أيام الشتاء عندما تكثر الأمطار والثلوج فتكثر معها الأوحال ، وكذا القول في المسلم وغيره . وأمر العبادة مهم في سورية جداً فإن القوم يرغبون بالعبادة كثيراً ولا ينقطعون عن فروضهم الدينية . ومع ذلك فقد أخذ بعض الناس يخالفون تقاليدهم القديمة ويسكنون معاً .

أما أدبهم الاجتماعي وعوائدهم في مجتمعاتهم وولائمهم وأفراحهم وأتراحهم فسيأتي بك ذلك في محله .

طبقات الدماشقة من حيث أسباب ارتزاقهم

يقسم الدماشقة من حيث أسباب معاشهم إلى خمس مراتب الأولى : مستخدمو الحكومة . والثانية : أصحاب الأملاك . والثالثة : التجار . والرابعة : الباعة . والخامسة : المحترفون أو أصحاب المهن .

فمستخدمو الحكومة يعدون بضع مئات وهم مختلفو الدرجات في الثروة والاقتدار ، كثيرو النفقات ، يتزيون بالزي الإفرنجي ، ونفوذهم بحسب مراتبهم ومكانتها من الأهمية . وبيوت الكبار منهم ممتزجة الترتيب ما بين النظامين الشرقي والغربي .

وأصحاب الأملاك أكثر من خدمة الحكومة عدداً وهم غالباً أصحاب الغنى والثروة الواسعة يشتغلون بإدارة أملاكهم وينفقون من ريعها . وعوائدهم في ملابسهم ونظام بيوتهم غالباً شرقية ، وإذا مدت السكك الحديدية المنوي مدها إلى دمشق زادت قيمة الأملاك وارتفعت أسعار الأطيان فيتعاظم غنى أصحابها (تنبيه : يجب أن لا يفهم من كلامنا بأنه لا أصحاب أملاك في دمشق غير أصحاب هذه الفرقة فإنه يوجد كثيرون من خدمة

الحكومة والتجار الباعة حتى ومن المحترفين أيضاً لهم أملاك وما جعلنا أصحاب الأملاك رتبة لوحدها إلاّ بالنسبة للذين لايتعاطون شغلاً آخر معها).

والتجار كثيرو العدد بالنسبة للمرتبتين المذكورتين وهم قسمان : قسم يتجر بالبضائع والمحاصيل فقط إن كانت من نتاج البلاد أو من الخارج، وقسم يتجر بما ينسجه من المنسوجات الشامية أو بما يصنعه من المصنوعات، وربما أضاف إليه أعمال تجارة القسم الأول . وأغلب تجار هذا القسم يطلق عليهم اسم معلمو الكار (والكار بعرف الدماشقة صنعة النسج وملحقاتها) وهؤلاء التجار بالإجمال أكثر عملاً وحركة من المرتبتين السالفتين ومعلمو الكار منهم أكثر شغلاً وحركة من سواهم .

والباعة يبلغون نحواً من سبعة آلاف نفس وجميعهم ذكور (إلاّ شرذمة قليلة جداً من النساء يسمونهن دلالات شأنهن بيع بعض الملابس القديمة في أحد أقسام سوق الدلالين (سوق الأروام) المسمى بسوق النسوان، وهم مراتب بحسب ما يتعاطون بيعه . ولسهولة التعبير يمكن قسمتهم إلى قسمين رئيسيين الأول : باعة الأقمشة، وهم عبارة عن تجار صغار، ويدخل بهذا القسم باعة المنسوجات الإفرنجية على اختلاف أنواعها، وباعة الحدايد والأواني الخزفية والخرداوات، وباعة المنسوجات الشرقية على أنواعها ومن ضمنها منسوجات المدينة من قطنية وحريرية وصوفية، وباعة الحبال وما شاكل ذلك . والثاني : باعة المأكولات والمشروبات . وهو على قسمين رئيسيين الأول : باعة العطارات والبهارات والمربيات، والتنبك والدخان، ومحاصيل البلدة المقددة كالقمر الدين والمشمش والجوز والزبيب وما هو من نحو ذلك . والثاني : السمانون (الزياتون) والخبازون والجزارون وباعة الخضر والفواكه وما هو من هذا القبيل . وجميع الباعة في ملابسهم ونظام بيوتهم على ترتيب شرقي، وأصحاب القسم الأول

يبدأون بأشغالهم من ضحى النهار إلى ما قبل الغروب بساعة على الغالب . وأما بعض القسم الأول من القسم الثاني والقسم الثاني منه فيبدأون بأشغالهم من الصباح إلى الغروب ، وبعضهم يستمر عاملاً إلى ما بعد الغروب بساعتين ، كل ذلك لمناسبة ظروف الأحوال المتعلقة بالمهنة التي يتعاطاها الشخص .

والعملة هم كثيرو العدد لكثرة ما في هذه المدينة من الصنائع والمهن المتسعة النطاق ، فإن فيها من أنوال النسج فقط ما يبلغ الخمسة آلاف وخمسمائة نول ، وهذه الأنوال مع ما يتبعها من الحرف التمهيدية للنسج والمتممة له تشغل نحواً من خمسة عشر ألف عـــامل ، منهم نحو خمسة آلاف امرأة ونيّف تعمل كل منهنّ في بيتها في تسليك الحرير والغزل وما هو من نحو ذلك . وتشغل المهن الأخرى الكثيرة الألوف من الناس أيضاً . وسنأتي على ذكرها عند كلامنا على الصنائع .

والعملة ، على كثرتهم ، يعملون بجد ونشاط من الصباح إلى الغروب وعند اللزوم يصلون الليل بالنهار . وإذا لاحظنا ذلك رأينـــا أهالي دمشق جماعة عاملين مجتهدين لا كسالى كما يظن المزدرون بهم ويبدون حكماً على ظاهر أمورهم . ولا شك بأن الحركة في دمشق لها وجهان وجه ظاهري يقع عليه نظر السائح من الوهلة الاولى وهو حركة التجار والقسم الأول من الباعة وبعض الثاني منهم ، ووجه لا يراه إلاّ الباحث وهو حركة العمل وهمة الفئة الكبيرة من الأهالي كما تقدم . فالوجه الأول إذا نظر إليه بعلله ذهب ظن الكسل وعلم بأن الحالة المتبعة قضت بها ظروف الأحوال ، فإن عادة التجار الدماشقة وخصوصاً معلمو الكار منهم عمل أعمالهم الكتابية والإدارية في بيوتهم ولا يبقون لمراكز أشغالهم التجارية إلاّ البيع والشراء . والباعة مدار أعمالهم على المشترين ، والمشترون من أهالي المدينة والقرى حولها ، وكلا الفئتين لايتمكنون من النزول إلى الأسواق إلاّ في ضحى

النهار ،فأهالي الفئة الأولى من المشترين من نساء ورجال ترى تفضيل الشغل الباكر في أعمالها أو بيوتها على البيع والشراء ، والثانية لا تصل المدينة إلاّ في ضحى النهار ،فلذلك لم يكن من حركة على الباعة المذكورين إلاّ للضحى فيصرفون هذه الفرصة في عيادتهم وتدبير لوازم بيوتهم ونزاهة أنفسهم . ولولا البواعث المذكورة لرأينا القوم في مصالحهم منذ بزوغ الشمس كما شاهدنا تجار الأغلال منهم ، فإنهم يبدأون بأعمـــالهم قبل طلوع الشمس ، وكذلك باعة المأكولات فإن معظم هؤلاء يبدأون من الصبح ويستمرون في مراكز أعمالهم إلى ما بعد الغروب بساعتين وهو آخر وقت تسمح به الحكومة بفتح الدكاكين ، ولا يأخذون فرصة لراحة في النهار .

أما حركة العملة فمستمرة تدل على النشاط والثبات على العمل،ولا يراها من السياح إلاّ قاصدها لوقوع معظم محلات هؤلاء العملة وخصوصاً النساجين منهم في الحواري،وإذا قصدت محلاّ من هذه المحلات التي يسمونها خانات وجدت به بضع مئات من العملة رجالاً وأولاداً منصبين على العمل من بزوغ الشمس إلى المساء من غير أن يأخذوا لأنفسهم راحة في أثناء النهار .وإذا دخلت البيوت رأيت النساء مثال العمل والاجتهاد فإنهنّ يدبّرن بيوتهنّ بأنفسهنّ كما تقدم وإن كنّ غير ميسرات فبعد ذلك يعملنَ بشغل يكون لهنّ منه نفع . ولكل ملة من هؤلاء العملة يوم راحة في الأسبوع يمتنعون به عن العمل راحة للجسم من مشاق الأتعاب ورغبة في قضاء بعض المهام . فللمسلمين يوم الجمعة ، واليهود السبت ، والنصارى الأحد ، ولهم غير ذلك بعض أيام راحة يصرفونها بالنزهة وترويح النفس ، وهي إما أعياد دينية وإما أعياد وطنيّة ألفوها من قديم الزمن . ومن كان من هؤلاء العملة معطلاً عن شغله لسبب من الأسباب لا يتأخر عن صرف جانب من وقته في التنزه لكثرة المتنزهات وقربها من المدينة وقلة النفقة بها .

ملابس الدماشقة

ملابس الرجال : يلبس رجال هذه المدينة القنابيز (القنباز كساء يشبه القفطان المصري في كلّياته ولا يختلف عنه إلاّ قليلاً ، فإن القنباز له قبّة يبلغ ارتفاعها قيراطاً ونصف القيراط ، وأما القفطان فلا ، والقفطان أكمامه طويلة مدلاة عريضة ، وأما القنباز فأكمامه ضيقة عن القفطان وطولها إلى مفصل الكف أو أطول قليلاً) ويتمنطقون فوقها بشالات أو زنانير حريريّة أو غير ذلك . وقد كانوا يلبسون فوق ذلك الطيلسانات ، إلاّ أن معظمهم عدلوا عن هذه العادة وصاروا يلبسون صيفاً البالطات الخفيفة الحمل وشتاء الفراء أو البالطات الثقيلة . (إن عادة لبس الفراء قديمة جداً في هذه المدينة) وجميعهم يلبسون الطرابيش الاسلمبوليّة إلاّ أن معظم المسلمين يتعممون فوقها بعمامات صغيرة من قماش الأغابي ، وطلبة العلم منهم يتعممون بعمائم من قماش الشاش الناصع البياض. وبعض العملة من النصارى واليهود يلقون على طرابيشهم المناديل ، وقد أخذ البعض في التسرول أو لبس البنطلون ، وأخص من يلبس البنطلون خدمة الحكومة . والنساء متبعات الأزياء الإفرنجية في ملابسهنّ وترتيب شعورهنّ . وفي بيوتهنّ يلبسنَ البنوار ، وأما في زياراتهنّ والأيام الرسميّة كالأعياد والأفراح وما هو من نحو ذلك فيلبسنَ

بحسب المودات الإفرنجيّة التي تكون جارية ، ولا يخرجنَ من بيوتهنّ إلاّ مؤتزرات مسبلات المناديل (المدورات) على أوجههنّ . إلاّ أن المسيحيات واليهوديّات منهنّ لا يسبلنَ مناديلهنّ إلاّ عند خروجهنّ من أحيائهن . أما الأزر فهي من قماش قطن أبيض رقيق حسن الصنعة ولهنّ عناية عظيمة في نظافتها وترتيبها ، وبعض المسلمات يأتزرنَ بملايات ملونة تشبه الملايا المصريّة وبعض الغنيات منهنّ يأتزرنَ بالملايا الحريريّة وبعضهنّ بها موشاة بالقصب ، وقد يبلغ ثمن الملايا العشرين جنيهاً أو أكثر ، وكلها من شغل المدينة .

حجر بيوت الدماشقة وفرشها

حجرُ الدماشقة كبيرة واسعة مرتفعة السقوف وهي مربعة أو مستطيلة وتقسم إلى قسمين علويّة وسفليّة . فالعلويّة ما كان منها قديم البناء موشحاً بالأدهنة والنقوش يسمونه قصراً ، وما كان حديثاً بسيطاً يسمونه افرنكة . وغالباً يستعملون هذا القسم العلوي للمنام صيفاً ، وله وللجلوس شتاء . والسفلية وإن كانت مستطيلة أو مستطيلة وفي وسطها بركة ماء يسمونها قاعة ، وإن كانت مربعة أو مستطيلة قليلة يسمونها مربعاً ، ويستعملون هذه الحجر للاستقبال والجلوس وبعضها للمنام .

وترتيب فرش حجر الدماشقة شرقي فانهم يبسطون في وسط الحجرة السجاجيد أو البسط العجمية أو الحصر ، ويضعون حولها مما يلي الجدران مقاعد ملاصق بعضها لبعض حشوها في الغالب صوف أو ما يقوم مقامه ، وعرض هذه المقاعد ذراع شامية ونيف ، وارتفاعها اعتيادياً ربع ذراع ، ويغشونها بالأغشية الحريرية والصوفية والقطنية (وأكثر هذه الأغشية من عمل المدينة) ويضعون على المقاعد حول الغرفة مساند ووجوهها من أوجه

المقاعد (اعلم أن هذه المقاعد يضعونها حول ثلاثة أضلاع الغرفة فقط حيث أن الضلع الرابع أوطأ من القسم المفروش بنحو نصف ذراع اعتيادياً ، ويخلعون به أحذيتهم وإن كان عريضاً يضعون به كرسياً أيضاً ، وفي صدر هذا الضلع أمام باب الحجرة فراغ يبلغ ارتفاعه ما ينيف على ثلاث أذرع وعرضه متراً وعمقه ثلث ذراع ، وفي نحو ثلثه الأسفل مقطوع برخامة أو حجر ويسمونه مصباً يضعون في صدره مرآة ويعرضون به بعض الأواني الثمينة ، وهو غالباً مزين بالنقوش الجميلة ، وكانوا فيما سبق يغشونه بقيشاني جميل مكتوب عليه اسم الجلالة أو النبي (صلعم) أو بعض الصحابة ، رضي الله عنهم ، إذا كان أصحابه مسلمين . وإن كانوا نصارى فبعض آيات من كتبهم ، وكل ذلك بخط جميل بنفس القيشاني . ويعلقون على الجدران المرايا أو القطع الجميلة الخط أو الصور إن كانوا غير مسلمين ، وفي جدران حجرهم كتب كبيرة (الكتبية عبارة عن خزانة في الجدار ارتفاعها نحو ذراعين وعرضها ذراع وعمقها الثلث أو النصف من الذراع ، ويقسمونها إلى ثلاثة طوابق ويبدأون بها على نحو ذراع من سطح الحجرة) يعرضون فيها الأواني الثمينة من صينية وفضية وبلورية وما أشبه ذلك ، وأصل وضعها ، كما يستدل من اسمها ، كان لأجل الكتب وذلك في أيام دولة العلم في الشرق . ويغشون شبابيك الحجر ببرادٍ جميلة بين ثمينة بحسب اقتدار أصحاب المحل المالي فتعطي الحجرة جمالاً ورونقاً وتدفع البرد في الشتاء ، والأغنياء يزينون حجرهم أيضاً بالتحف وما أشبه ، وقد يبلغ فرش الحجرة الواحدة المبالغ الطائلة .

أما السرر فقليلة جداً في دمشق واصطلاحهم أن يفرشوا فُرش نومهم

على أرض الحجرة المعدة لنومهم وفي الصباح يطوونها ويرصفونها في خزانة بجدار الحجرة مصنوعة لهذا الغاية يسمونها يوكا . وكل فرش نومهم حشوها الصوف . ولا بد لكل صاحب بيت ولو كان فقيراً من حجرة مفروشة في بيته لأجل استقبال الضيوف ، وبعضهم جمعوا في نظام حجرهم ما بين الطرازين الشرقي والغربي وهم جماعة من المستخدمين وبعض ذوي اليسار .

مجتمعات الدماشقة

للدماشقة ، في أوقات فراغهم من أعمالهم ، مجتمعات عمومية ومجتمعات خصوصية . فالمجتمعات العمومية غالبها مفوضة وأما المقاهي فأغلب من يجلس فيها المسلمون ومعظمها في أحيائهم (أما الحانات فقليلة جداً في دمشق بالنسبة لاتساع المدينة ولا يجتمع بها غير رعاع القوم وسفلتهم ، والبيرات لا وجود لها أصلاً وما من امرأة على الإطلاق تخدم في محل عمومي) . وأما المجتمعات الخصوصية ففي البيوت وأكثرها في ليالي الشتاء الطويلة ، فإنه لا يأتي الجزء الأخير من فصل الصيف إلا ويتألف الناس جماعات من كل طبقة ويسهرون بعضهم عند بعض بالمناوبة لنهاية الشتاء ، وسهرتهم تبتدىء اعتيادياً من الساعة الواحدة إلى الساعة الرابعة أو الخامسة عربية ، وتجاوز ذلك نادر ، ويصرفونها إما بالحديث ، وإما بالقراءة ، وإما بلعب الورق (ولكن بدون مقامرة) وما هو من نحوه ، وإما بألعاب لطيفة يشترك فيها الكل ، وإما بالغناء وضرب الآلة . وقد تكون السهرة من هذه السهرات التي يسمونها أدواراً مؤلفة من ٤٠ نفساً أو أكثر ، وقد تكون من عشرة أشخاص فقط ، ولا شك أن هذه السهرات تزيد بألفة القوم ووِدادهم . أما النساء فيسهر بعضهن عند بعض أيضاً ، ولكن ليس

كالرجال ، فإن أشغالهن لا تسمح لهن بالتفرغ كالرجال . وقاعدتهم في سهراتهم التسوية وبذلك يكمل حظهم وغالباً يكون أعضاء الدور متساوين سناً وإن اختلفوا منزلة ويعامل بعضهم بعضاً باللطف والإيناس ، وإذا كان عند أحدهم غريب صحبه معه إلى السهرة وعرفه بأصحابه فكان موضوع احتفائهم والتفاتهم ، وكل يبذل جهده في سبيل انشراحه ومسرته ، ومن ثم يصير ذلك الغريب صديقاً للكل . وقد يتفق أن يكون بعض الغرباء من آل الفتن والمشاكل ومع ذلك يحتفون به ويكرمونه إلا أنهم يصيرون على حذر ويقظة منه ، وغالباً تختم سهرات المسلمين بمائدة حلواء .

ولائم الدماشقة

يولم الدماشقة الولائم الكثيرة بعضهم لبعض ولمن كان غريباً بينهم . وإذا كانت الوليمة إكراماً لغريبٍ دعوا إليها أصحابه وأصحابهم ليزداد سروراً وأنساً، وهذا شأن جميع الأمم المتمدنة في ولائمهم لمن كانوا أعزاء عندهم أو لمن قصدوا إكرامه وتعزيزه . وقد يدعون إلى الوليمة بعض المغنين المطربين ، وبعد أن يصرفوا جانباً من الوقت بمبادلة عبارات المودّة والملاطفة وسماع غناء المغنين يمدّ خوان الطعام ويدعى المدعوون حين ذاك إليه . وترتيب موائد طعامهم شرقي، فإنهم يضعون صدراً من نحاس أصفر قد يكون قطرهُ متراً ونصف المتر على كرسي ارتفاعه نحو من نصف ذراع ، ومن ثم يرتبون عليه صحاف الطعام الملونة ترتيباً يدل على الذوق السليم ، ولهم ذوق في الأطعمة وتلونها . ويضعون بجانب الحجرة ، إن كانت كبيرة وإلاّ ففي غيرها ، صدراً آخر عليه أنواع الحلواء الطيبة والفواكه اللذيذة . وبعد أن يتناول المدعوون الطعام أشكالاً وألواناً يذهبون إلى مائدة الحلوى والفواكه ويأكلون ما طاب لهم، وصاحب البيت عامل في كل ما يؤول إلى راحتهم وسرورهم ، ثم يذهبون فيغسلون أيديهم ويعودون إلى أماكن جلوسهم

فيشربون القهوة ويدخنون (أغلب تدخينهم بالنارجيلة) . ويصرفون السهرة إن كانت الدعوة مساء بالسماع إن كان وإلاّ فبالأحاديث . وإن كانت الدعوة نهاراً صرفوا جانباً من الوقت ومن ثم ينصرفون فيودعهم صاحب المنزل بالشكر والامتنان لزيارتهم له والاعتذار لهم عن تقصيره بحق واجبهم . ومن العيوب العظيمة عندهم أن يذكر الانسان ما أكرم به ضيوفه . وإن كانت الوليمة بين المسيحيين أو اليهود جلس النساء مع الرجال إلى مائدة الطعام وإن كانت بين مسلمين يجلس الرجال وحدهم لداعي الاحتجاب . أما جلوسهم على الطعام ففي غاية التأدب ، وكلامهم إلى المائدة بما يناسب المقام ، وترتيب ولائمهم عند كل طبقاتهم واحد إلاّ أن بعض الأغنياء ومستخدمي الحكومة قد يجعلون أحياناً ترتيب موائد ولائمهم بحسب ترتيب الافرنج .

عوائد الدماشقة في أفراحهم وأتراحهم

تختلف عوائد الدماشقة في ذلك اختلافاً كبيراً فإن لكل ملة منهم عوائد في ذلك تختلف عن عوائد الملة الأخرى . ولما لم يتسهل لنا الوقوف على ذلك لقصر مدة إقامتنا في دمشق أعرضنا عنها مشيرين على من رام معرفته أن يطالعه بالروضة الغناء .

أبنية دمشق

أبنية هذه المدينة عالية متصل بعضها ببعض لا فسحة بين الدار والأخرى ولا تحتوي إلاّ على دورين فقط وقائمة من حجارة بسيطة إلى ما فوق الأرض بأربع أذرع ثم من طوب نيّ (لبن) وخشب وكلها مازورة بطين أحمر أو جير (كلس) وكذا الأسطحة . ولا نظر لها من الخارج ، وأما من داخل فهي دور فسيحة جميلة مزخرفة بأنواع الدهان والنقوش ، في صحنها برك الماء محفوفة بأشجار الليمون وغيره مع كثير من النباتات العطرية والزهور الحسنة . وفيها القاعات الجميلة والحجر المزخرفة وجميعها مبلطة بالرخام وغيره على أشكال كثيرة . ويوجد في هذه المدينة دور عظيمة قديمة وحديثة يقصدها أهل السياحة للفرجة وأشهر دورها القديمة دار عبد الله بك العظم فإنه يوجد فيها كثير من المقاصير والقاعات والحجر البديعة العلوية والسفلية والبرك الكبيرة وقيل إن فيها ثلاث مئة وستين حجرة .

ومن الدور الحديثة بحارة النصارى دار حبيب أفندي صباغ بناها متري أفندي شلهوب وتم بناؤها سنة ١٨٦٦ م . ودار جبران أفندي شامية بناها

أنطون أفندي شامي وتم بناؤها سنة ١٨٦٦ م . ومن دور اليهود دار شمعايا ودار يوسف عنبر. ومن دور المسلمين دار سعادتلو محمد سعيد باشا أمير ركب الحاج الشامي ودار سعيد أفندي قوتلي ودار سعادتلو محمد حسن باشا البارودي . وغير ذلك كثير وجميعها على نسق شرقي . وإذا قصد أحد زيارة هذه الدور للفرجة استقبله أهلها بالبشاشة والترحاب . أما مجموع دور دمشق فيبلغ ١٤٧٢٠ داراً .

أسواق دمشق

أسواق دمشق كثيرة العدد وتحتوي نحواً من سبعة آلاف دكان ، وهي بين مجموعة ومتفرقة . فالمجموعة يطلقون عليها اسم المدينة وتحتوي على ٢٨ سوقاً أشهرها : باب البريد وموقعه تجاه باب الأموي الغربي ، وسوق مدحت باشا وهو يحتوي على عدة أسواق قد نظمه مدحت باشا في أثناء ولايته وهو جميل شاهق وقد تمّ بعده ، وسوق الحميدية أنشىء حديثاً في عهد ولاية حمدي باشا . وكل هذه الأسواق عالية مسقوفة . أما الأسواق المتفرقة فكثيرة وكثير منها بين الحواري . وأهم هذه الأسواق الممتدة من باب الجابية إلى باب مصر (بوابة الله) فإنك تسير فيها مسافة طويلة . ولكل سوق من الأسواق التي يطلق عليها اسم المدينة أصناف خاصة تباع بها . وجميع أسقف دكاكين المدينة عقود عملت كذلك اتقاء الحريق . وقد كان أمام الدكاكين مصاطب فأزيلت في سنة ١٢٨١ هجرية في أيام ولاية محمد شرواني باشا .

خانات دمشق

في دمشق ١٣٩ خاناً متفرقة في أنحائها ، فمنها ما هو خاص بالتجار وموقعه ضمن المدينة (الأسواق المجتمعة) ، ومنها ما هو للبهائم وإوابة المكارين وهو متفرق في أنحاء البلد . وأشهر خانات التجار وأكبرها : خان أسعد باشا وهو مشهور جداً وقديم ، موقعه في سوق البزورية (العطارين) ، ويقيم به أشهر التجار وخصوصاً المتجرون إلى بغداد ، وبجماله وحسن منعة بنائه وخصوصاً بناء بابه يقصده السواح للفرجة ، وله قبة شاهقة ، وبه بركة متسعة ، وحجره العلوية والسفلية قاعات مزخرفة بزخارف جميلة قديمة ، وبانيه وباني بيت عبد الله بك المذكور هو أسعد باشا العظم في أيام ولايته على دمشق التي كانت في سنة ١٧٤٥ م . وثاني هذا الخان في العظمة والاتساع خان سليمان باشا أخذ في بنائه في نحو سنة ١٧٣٢ م . ويوجد كثير غيرها . وأما الخانات الثانية فأشهرها بسوق الخيل والعمارة وباب المعلا والشاغور .

مقاهي دمشق

في دمشق ما ينيف على مئة وعشرين مقهى بين كبير وصغير . وهي منتشرة بأنحاء المدينة ، وما كان على الطرز القديم منها فكثير ، وثمن فنجان القهوة خمس بارات . وأما في الحديثة أو المنظمة تنظيماً جديداً فثمن الفنجان من عشر بارات إلى العشرين . وأكثر المقاهي الحديثة أنشئت في المرجة فيجتمع فيها الناس ليلاً ونهاراً في فصول السنة الثلاثة وهي الربيع والصيف والخريف .

حمامات دمشق

أجمع أهل السياحة في أنحاء الممالك العثمانية ومعظم الديار الشرقية على تفضيل حمامات دمشق على غيرها لاتقان هندستها وانتظامها وغزارة مياهها وحسن خدمتها واعتناء أصحابها بالمستحمين . وهندسة جميع حمامات دمشق واحدة . فإن الحمام ينقسم إلى دائرة خارجية في وسطها بركة ينساب فيها الماء من أربعة أو خمسة أنابيب ، وحولها مصاطب مفروشة بأثاث حسن يخلع عليها المغتسلون ثيابهم ويقدم لهم ما يلزمهم من المناشف والبشاكير . ودائرة للاستحمام تقسم إلى قسمين خارجي وداخلي ولكلٍّ منهما أجران ، ولكل جرن أنبوب ماؤه حار . وفي بعض الحمامات للجرن أنبوبان واحد ماؤه حار وآخر ماؤه بارد . أما سقف دائرة الاستحمام فعقد ذو نوافذ صغيرة مستديرة يغطيها بلور ، وسقف الدائرة الخارجية قبة شاهقة .

وعدد حمامات دمشق ٥٨ حماماً متفرقة في أنحاء المدينة أشهرها حمام القيشاني وجدران الدائرة الخارجية منه مغشاة بصحف القيشاني النادر المثال البديع الصنعة . وحمام الخياطين . وحمام النوفرة . وغير ذلك كثير من الحمامات المشهورة .

جوامع دمشق

جوامع دمشق كثيرة متفرقة في كل أنحائها وتبلغ ١٥٣ جـامعاً ، ما عدا المدارس الكثيرة وترب الأولياء العديدة التي تقام بها الصلاة وشعائر الدين، والكلام عنها يستغرق المجلدات ،ولأجل الفائدة نتكلم باختصار عن أكثرها شهرة واعتباراً .

الجامع الأموي

فأولاً الجامع الأموي وهو من أكبر جوامع المسلمين وأقدمها وأشهرها وأجملها وأتقنها . بناه أمير المؤمنين ابن عبد الملك بن مروان وذلك من سنة ٨٩ إلى سنة ٩٦ هجرية وجمع إليه أشهر الصناع من مملكته المتسعة وأتاه باثني عشر ألف صانع من بلاد الروم أيضاً ، فأتى عظيماً جميلاً متقناً بالنقوش الجميلة والأدهنة البديعة ، وأنفق عليه الملايين الكثيرة ، ورصف أرضه بالبلاط الأصفر والرخام . وكان من يدخله ينشرح صدره ويزول الكرب

عنه ، وهو لا شك من أعظم أبنية الإسلام وأشدها متانة وعظمة . وطوله من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب مئة وخمسون خطوة ، وجدرانه شاهقة متينة كجدران القلاع ، وفي صحنه بركتا ماء على كلٍّ منهما قبة قائمة على أعمدة متينة ، ومن داخله رواق على جهاته الأربع قائم على أعمدة وأسوار عالية ، وحرمه مستطيل من الشرق إلى الغرب ، وسقف الحرم قائم على أعمدة عظيمة شاهقة ،وفي وسط السقف المذكور قبة عالية جداً مغشاة بالرصاص وعلى رأسها هلال مرتفع ويسمونها قبة النسر . وفي وسط الحرم قبة بغاية الجمال والمهابة وتسمى قبة النبي يحيى وهي قائمة على أعمدة متقنة الصنعة . وفيه أيضاً أربعة محاريب لأصحاب المذاهب الأربعة بنيت سنة ٧٢٨ هجرية . وفي الجامع كثير من الحجر المختصة بالزيارات منها مشهد سيدنا الإمام علي وسيدنا الحسين وسيدتنا عائشة ، رضي الله عنهم . وغير ذلك كثير . وكلٌّ يجتمع به عدد غفير من العلماء والمدرسين والأيمة والسامعين والقارئين والمصلين ، ويضاء به ليلاً مئات من المصابيح والقناديل حتى تخال الليل نهاراً ، وله ثلاث مآذن الأولى مئذنة عيسى واقعة بشرقيه ، ويقال بأنه لا مثيل لها بالارتفاع بين جميع مآذن الإسلام ، وتعلو عن الجامع أكثر من مئة قدم ، وإذا صعدت إليها يمكنك أن ترى دمشق وما حولها من القرى والضياع إلى مسافة بعيدة . وأمامها إلى الغرب المئذنة الغزالية وهي أقصر منها قليلاً . وذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه المئذنة ومئذنة عيسى كانتا في زمن الرومان واليونان لرصد الأفلاك.وفي الشمال مئذنة العروس وهي أجمل من المذكورتين بناها الوليد وأنفق عليها المال الطائل . ومعين لهذه المآذن خمسة وسبعون مؤذناً يتناوبون الأذان فيها بأجمل الأصوات .

وبقعة هذا الجامع مخصصة للعبادة منذ بنيت دمشق ،فأولاً كانت هيكلاً للأراميين ، ثم اتخذها اليونان معبداً ، ثم الرومان ، ثم المسيحيون كنيسة

على اسم يوحنا المعمدان ، ثم الإسلام جامعاً على اسم النبي يحيى عليه السلام .
وللجامع سبعة أبواب خارجية ، فمن الجنوب باب العبرانية ويسمى باب الزيارة وباب الساعات أيضاً ، ومن الغرب باب البريد ، ومن الشرق باب جيرون ، ومن الغرب أربعة أبواب أشهرها باب الفراديس ، وفي الجامع تحف كثيرة ثمينة ، وحرمه مفروش بأبدع أنواع السجادات وأكبرها حجماً وأعلاها ثمناً .

وثاني الأموي بالشهرة والجمال جامع السنانية بناهُ سنان باشا .

جامع الشيخ محيي الدين

ومن الجوامع المشهورة أيضاً جامع الشيخ محيي الدين بالصالحية يقصده الناس كثيراً للزيارة والصلاة وخصوصاً في أيام الجمعة . وهو قديم جدده السلطان سليم العثماني عند فتحه دمشق . وقد زرناه وزرنا ما ذكر قبله وغيرهم مراراً كثيرة فكانت تنشرح صدورنا وتسر خواطرنا ولا سيما عندما كنّا نرى ألوف المصلين منكبين على العبادة .
ويوجد جوامع كثيرة معتبرة لا يسع المقام للالماع إليها ، وعدد معابد المسلمين بدمشق كالآتي :

جوامع لأكثرها مآذن ١٥٣ ، مساجد ٧١ ، تكيات ١٤ ، ترب أولياء ومحلات زيارات ١٩٤ ، مدارس ٣٩ ، والمجموع ٤٧١ .

ومن الترب تربة الملك الظاهر بيبرس وهي جميلة جداً واقعة بالقرب من باب البريد وهي بناءٌ عظيم. أقيم فيه في أيام ولاية مدحت باشا مكتبة عمومية جمع إليها بقايا مكاتب المدينة القديمة فصار بها أربعة آلاف كتاب عربي قديم ونيف من أبدع الكتب وأندرها وجوداً حتى أن بعضها لا يوجد في غيرها ، وهي تدل على ما بلغه العرب من المدنية والعلم .

كنائس دمشق وأديرتها

كنائس الروم الأرثوذكس

للروم الأرثوذكس ثلاث كنائس الأولى كنيسة المريمية وهي قديمة كانت قبل الفتح الإسلامي وتقلبت عليها أحوال كثيرة وفي سنة ١٨٦٠ دهمها الدمار فجددت بعد ذلك ، وكانت من أكبر وأجمل كنائس النصارى في الشرق.وكنيسة يوحنا الدمشقي تمّ بناؤها سنة ١٨٦٤ ، وكنيسة في الميدان تمّ بناؤها سنة ١٨٦٢ .

كنائس الروم الكاثوليك

وللروم الكاثوليك ثلاث كنائس . الأؤلى كنيسة السيدة وهي كبيرة جميلة متينة تجددت بعد خرابها في سنة ١٨٦٠ فأتت أحسن مما كانت . وواضع أساسها أولاً البطريرك مكسيموس مظلوم الشهير . وكنيستان [illegible]

وللسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي . وللأرمن الكاثوليك كنيسة صغيرة أُنشئت بعد سنة ١٨٦٠ بقليل . وكنيسة للأرمن الأرثوذكس واقعة تجاه سور المدينة من جهة الشرق اسمها كنيسة مار سركيس . وكنيسة لليعقوبيين صغيرة اسمها كنيسة حنانيا .

وللبروتستانت كنيستان الأولى أُنشئت سنة ١٨٦٤ والثانيةسنة ١٨٦٨.

أما الأديرة فهي دير للعازريين وآخر للفرنسيسكانيين وقد تأسس بحسب ما يقال من نحو ٣٤٠ سنة.ودير للموارنة اسمه دير مار أنطونيوس، وآخر عظيم متسع للرهبان الجزويت ابتدأوا به من أكثر من عشر سنين ولم يكمل بعد،وفي كل دير كنيسة،وجميع هذه الكنائس والأديرة واقعة بحي النصارى ، وعلى ذلك تكون كنائس النصارى ١٧ كنيسة. أما كنس اليهود فكثيرة وأشهرها عشرة والمشهور منها كنيس سوق الجمعة .

المعارف في دمشق

اشتهرت هذه المدينة بالمعارف والعلوم في سالف الأيام ، كما اشتهرت بالتمدن والحضارة ، واستمر ذلك فيها طويلاً . واشتهر العدد العديد من رجالها بالعلم والفضل ، إلاّ أن كثرة التقلبات والاضطرابات السياسية جعلت نصيبها كنصيب غيرها من مدن الشرق ، فتقلص ظل العلم فيها وبقي محصوراً في البعض من رجالها ، إلاّ انه لما ظهرت تباشير الأمن نهض أهلها لطلب العلم وإحراز المعرفة . فأنشئت فيها المدارس والمكاتب وما زالت آخذة في التقدم والارتقاء . أما النصارى فكانوا أكثر طلباً واجتهاداً ، وقد أنشئت لهم مدارس كثيرة وطنية وأجنبية حتى صرت لا تجد بينهم من لا يحسن القراءة والكتابة ولغة أجنبية أو أكثر إلاّ نادراً . فان عددها يبلغ الخمس عشرة ، وفيها ألف وخمسمائة تلميذ ونيف ، وخمسون مدرساً ، ويدرس فيها مبادئهم الدينية والعلوم العربية والحساب والجغرافية والتاريخ ، وفي بعضها الجبر والهندسة والمساحة والطبيعيات وغير ذلك ، ومن اللغات التركية والفرنساوية والانكليزية واليونانية والأرمنية والسريانية . وأشهر

هذه المدارس وأكثرها علوماً المدرسة الإنجيلية ، وتليها مدرسة الروم الأرثوذكس بالعلوم والشهرة ، ثم المدرسة العازارية، ثم الكاثوليكية ،وما زالت هذه المدارس آخذة خطة التقدم والتحسين .

أما مدارس المسلمين فمنها ما هو لدرس العلوم الدينية والفقه ويبلغ طلبتها نحو الألف، وجلهم يتلقون العلوم على الأئمة المدرسين والعلماء الأعلام في الجامع الأموي وغيره ، وفيهم كثير من الرجال النوابغ والعلماء الأفاضل ممن يطول الشرح بذكرهم .

ويوجد كتائب كثيرة لتعليم مبادىء القراءة تبلغ السبعين كتاباً وطلبتها نحو ألف وخمسمائة طالب . ومنذ أيام مدحت باشا أُنشىء مكاتب ابتدائية مرتبة يبلغ عدد تلاميذها الآن نحو ألفين ، ويدرس بها العربية والتركية والحساب والجغرافية ومبادىء التاريخ والفرنساوية . وللحكومة مدرسة صنائع وأربع مدارس رشدية ومدرسة حربية إعدادية ومدرسة حربية كلية وغير ذلك .

أما البنات فمنذ أعصر الاضطراب أُهمل تعليمهنّ، ولكن بعد أيام رحيل إبراهيم باشا عن سورية بقليل نهض النصارى لتعليم بناتهنّ ، فأخذوا في إنشاء المدارس لهنّ ، ثم تبعهم المسلمون ، ثم اليهود . وقد أفاضت الشرح بذلك حضرة الفاضلة السيدة سلمى قساطلي الدمشقية في مقالة نشرت في جريدة اللطائف الغراء في السنة الماضية ، وبينت بتقويم مقدار التقدم من ابتداء نهضة الأنثى الدمشقية إلى غاية سنة ١٨٩٠ مسيحية فكانت النتيجة كما يأتي :

المعدل بالألف	التلميذات سنة ٩٠	عدد الإناث بحسب التعديلات الأخيرة	
١٦٠	١٢٨٠	٨٠٠٠	مسيحيات
٠٤٢	٢٥٠٠	٦٠٠٠٠	مسلمات
٠٦٠	٠١٨٠	٠٣٠٠٠	يهوديات

أما عدد مدارس البنات المسيحيات في سنة ١٨٩٠ على ما جاء بتقرير الفاضلة المذكورة فهو ١٠ نصارى والتلميذات ١٢٨٠ ، وللمسلمين ١٢ مدرسة و ١٥ كتاباً والتلميذات ٢٥٠٠ ، ولليهود ٢ والتلميذات ١٨٠ . ويعلم بهذه المدارس أكثر ما يعلم بالمدارس المذكورة ويزاد على ذلك أشغال اليد . ولليهود مدرسة حسنة واثنتا عشرة مدرسة بسيطة والتلامذة يبلغون ٤٥٠ تلميذاً وكلهم يتعلمون العبرانية لغتهم الدينية .

صنائع دمشق

اشتهرت دمشق بصنائعها المتقنة منذ قديم الزمن من حريرية وقطنية وأدوات وأسلحة ، حتى كانت تقدم من مصنوعاتها لكل أنحاء الممالك العثمانية الواسعة . ولكن منذ نكبة تيمور المغولي بدأ بها الانحطاط وفقدت بعض مصنوعاتها ، ثم لما عاكستها البضائع الإفرنجية ازدادت انحطاطاً ، ولكن ما زالت للآن تحسب في مقدمة مدن المشرق الصناعية وخصوصاً في النسج . ففيها خمسة آلاف نول ونيف لأجل المنسوجات الحريرية والغزلية والصوفية على أنواعها فضلاً عما يعمل من الأدوات وغيرها مما لها شهرة كبيرة فيه .

تجارة دمشق

نجحت تجارة دمشق في الزمان السالف نجاحاً عظيماً وصارت مطمحاً لتجارة الحجاز والعراق وبلاد الترك ومصر . واستمرت كذلك طويلاً واتسع غناها وتعاظم اقتدارها . ولكن لما دخلت التجارة الأجنبية إلى سوريا والممالك العثمانية أخذت بالانحطاط ، إلاّ أن ذلك لم يؤثر فيها إلاّ لحين فتحت ترعة السويس فتحولت أعظم متاجرها عنها وتناولت جانباً كبيراً منها مدينة بيروت ، وقل وفود الحجاج عليها فزاد ذلك نكبة متاجرها . إلاّ أنه مع ذلك ما زال لها تجارة متسعة مع أنحاء الممالك العثمانية وبعض جهات أوربا حيث تصدر حاصلاتها ومصنوعاتها وتستجلب لوازمها، ويؤمل سكانها أنه بمدّ السكك الحديدية المشروع فيها يرد لهم بعض ما فقدوه .

متنزّهات دمشق

متنزهات دمشق كثيرة لا تعد، فانك لا تخرج من أبواب المدينة إلاّ وتجد البساتين والرياض مسافة الساعات ، ولذلك يمكن القول بأن دمشق جميعها متنزهات ، ولكن أشهر ما يقصده الناس هو الصالحية والنيرب والمرجة وجهات باب توما حيث تجد حدائقها عمومية معدةللتنزهلا للاستثمار كجنينة الأفندي والمناخ والصوفانية وغير ذلك، وقاصد هذه المحلات لا ينفق فيها كثيراً ، وهي على مدى السنة ما خلا فصل الشتاء غاصة بالمتنزهين .

نباتاتها وأشجارها

في بساتينها جميع أشجار الفواكه الشهية وهي كثيرة ما خلا أنواع الليمون وأصناف قليلة غيره ، وأثمارها شهية لذيذة رخيصة الثمن كبيرة الحجم ،ولكثرتها يكثر أهلها من أكلها وهي تأتيهم صنفاً بعد الآخر . وأما الخضرة فيها فكثيرة رخيصة الثمن جداً ، ولأجل ذلك يمكن للكل من جميع الطبقات أن يعيشوا حسناً ويلتذوا بما يأكلون ،إذ لا شيء إلاّ موجود عندهم بكثرة زائدة . وفيها من الأشجار غير المثمرة شيءٌ كثير يرى منه غابات كثيرة وأكثره شجر الحور على أنواعه الذي ينشرح له الصدر .

نثريات

لا يأكل أهل الشام إلاّ اللحم الضاني وما يذبح منه في اليوم ٢٨٠ رأساً .

في دمشق جرنال واحد رسمي ، وثلاث مطابع ، وخمس مصابن كبيرة ونحو ٣٠ صغيرة ، و ١١ معمل نشا ، وفيها قلعة قديمة كبيرة جداً ، وقشالق كثيرة للعساكر . ويقال إن في مياهها خاصة لدفع مرض الجذام ومن أصابه وأتى بها لا يزداد به وتأكدت بأنه لا يصاب أحد من أهلها بهذا الداء .

وبعد أن قضينا وطرنا من مشاهدة هذه المدينة القديمة الجميلة المحسوبة بإجماع أهل السياحة قديماً وحديثاً جنة الأرض ، وزرنا آثارها ومحلاتها المشهورة مما ذكرته وما لم يسعني المقام لذكره، عقدنا النية على مبارحتها، فودعنا أصحابنا الكثيرين شاكرين ما رأيناه منهم من الإنسانية واللطف وكرامة الأخلاق مع سلامة النية ، وخرجنا منها وكلنا ألسنة ناطقة بشكرهم مرددة آيات حمدهم، حافظين لهم ولمدينتهم الزاهرة أحسن ذكر وأفضل أثر . وقصدنا السفر إلى بعلبك .

السفر من الشام الى بعلبك

خرجنا من الشام في صباح بهج مارين بمرجتها فما يليها من البساتين والرياض البهجة في الوادي الذي تقدم وصفه ، وكان النسيم لطيفاً والهواء عليلاً ، والأطيار تتنغم على الأشجار وتسبح المبدع الخلاّق ، حتى بلغنا الهامة فعجنا إليها ومررنا فيها . وأخذنا بالسير في وادي بردى الجميل والرياض حولنا من كل جانب ، وبردى يطربنا بنغمات سيره ومنظر انسياب مياهه ، فوصلنا قرية نسيمة ، فالعين الخضراء التي بجانبها ، وهي عين ماؤها زلالي ينساب على حصباء كالدر ونبات كالزمرد في بقعة أهدت إليها الطبيعة ما عندها من الجمال تحيط بها الجبال،ونهرا بردى والفيجة يلتقيان بالقرب منها التقاء الأحباب . وبعد أن لبثنا بها قليلاً بحسب ما سمح لنا المقام ركبنا مطايانا وأستأنفنا السير ما بين رياض وغياض ، فبلغنا الفيجة حيث ينبع النهر المنسوب إليها من سفح جبل شاهق ، وفوق النبع آثار هيكل بناه الأقدمون ويعلوه آثار قصر قديم يقال ان السلطان صلاح الدين الأيوبي بناه . ثم سرنا بذلك الوادي البهج وحولنا مثل ما وصفناه مارين بقرى كثيرة فيه تكتنفها الأشجار المثمرة، وغياض الحور البهجة،

وتنبع من جوانبها أعين الماء جداول تنحدر في ذلك الوادي إلى بردى ، بعد أن تسقي الحدائق والجنائن ، بأنغام أشهى في السمع من أنغام العود والقيثار حتى انتهى بنا السير بعد مسير نحو من سبع ساعات إلى قرية سوق وادي بردى وهي أكبر قرى هذا الوادي قائمة على آثار مدينة الإبلية القديمة ووراء هذه القرية في الجبل آثار كثيرة من بناء ومدافن مما يجذب نظر السائح لمشاهدتها ، وهناك تجد في الصخور أقنية قديمة محفورة حفراً متقناً من أيام الأقدمين يسير فيها الماء لسقاية الأراضي المرتفعة ، فاسترحنا قليلاً نسرح الطرف بتلك المناظر التي قلما يوجد مثلها على الأرض وعاودنا السير . أما هذا الوادي فعلى هذه البهجة والجمال منذ القديم وكان يلقب بوادي الذهب ووادي البنفسج ، وقد وصفه كثيرون من الشعراء والكتاب ، وكل قراه قائمة على آثار قديمة من زمن الرومان . وعند سيرنا انحدرنا انحداراً في ذلك الوادي حيث قل انفراجه كثيراً حتى وصلنا إلى بردى فمررنا على قنطرة قديمة فوقه تجددت كثيراً ، وكانت آثار الإبلية القديمة في الجبل عن يميننا ممتدة لمسافة بعيدة . ثم أخذنا بالصعود ، وبردى عن يسارنا وبالقرب منا ينحدر بقدر ارتفاعنا . وعن يسارنا إلى ما وراء النهر غياض حور كثيرة . واستمررنا سائرين حتى انفرج أمامنا سهل الزبداني الخصب فسرنا به نحواً من ساعتين ومناظر الجبال تشرح صدورنا وبردى ينساب بهدوء على بعد منا حتى بلغنا الزبداني ونزلنا بها ولبثنا تلك الليلة . وهي بلدة تحتوي على نحو من أربعة آلاف نفس ، وترى البساتين حولها على مسافة ساعة ، وهي كجنة تجري من تحتها الأنهار ، وفيها كثير من أشجار توت الحرير والتفاح على أنواعه وغير ذلك كثير ، وأمامها في الجبل قرى كثيرة عامرة كل قرية منها كجنة ، وهذه القرى مشهورة كثيراً بطيب الهواء والماء يقصدها أهالي دمشق لصرف أيام الصيف فيها وأشهرها مضايا وبقين

وبلون . وبالسهل بالقرب من الزبداني ينبع نهر بردى . وبعد أن لبثنا في الزبداني يومين سافرنا منها إلى بعلبك . وبعلبك مدينة قديمة جدّاً ذكرها كثيرون من المؤرخين في أدوار مختلفة ، وهي تشبه الشام في البناء وكثرة البساتين والثمار . وفيها كثير من المتنزهات أشهرها متنزه رأس العين ، وتحتوي على لوكاندات مشهورة معتبرة وقد نزلنا في أحد نزلها المشهورة فصادفنا به كل راحة . وهذه المدينة مشهورة بآثارها ، وقلعتها المشهورة في العظمة ودقة النقش وإتقانه وبعض حجارتها هائل جدّاً جداً ، وقد زرناها مراراً وفي كل مرّة نرى ما لم نره قبلاً . وقد وصفها كثيرون من كتّابنا الشرقيين الأفاضل وفصلوا ما بها من عجائب البناء وصنعته وأتوا على تاريخها ورسم صورها ، وأخص من ذكر ذلك جريدة المقتطف الأغر فليراجعه من شاء تفصيلاً . ويوجد فيها آثار كثيرة غير قلعتها مما يستغرق وصفه وتفصيله مجلداً وكلها تدل على ما بلغته سورية في سالف الزمن من العظمة والاقتدار . وبعد أن صرفنا أياماً قليلة في بعلبك بإضافة حضرة قائمقامها وقاضيها وأعيانها توجهنا إلى أرز لبنان عن طريق دير الأحمر .

أرز لبنان

أما ارز لبنان فغاب بالقرب من بشرّي يشتمل على ٤٧٣ شجرة وارتفاعه عن سطح البحر أكثر من ستة آلاف قدم يتقاطر إليه السيّاح من سائر أنحاء المسكونة ، ومنظره من أرهب المناظر ، وشجرهُ من أكبر وأعلى الأشجار ، ورائحته زكية ونموه غريب ، وأهالي تلك النواحي يزورونه ويسمونه أرز الرب ، وفي ذلك المكان كنيسة لطائفة الموارنة فيها دفتر لكتابة أسماء كل الذين يزورون الأرز . وقد نظرنا شجرة مجوّفة قيل انه أقام فيها ناسكٌ زمناً طويلاً . ومحيط بعض هذه الأشجار أكثر من أربعين قدماً وهي عالية جداً عن الأرض . وبالقرب من الأرز فم الميزاب وهو من أعلى جبال سورية ، يطلّ على البحر المتوسط ومدينة بيروت أمامه كلسان في البحر ، وهذا المنظر من أجمل ما رأت عيناي . وتشاهد من هناك السفن البحرية تمخر في عباب البحر إلى جهات مختلفة بما يسرّ الخاطر .

لبثنا في تلك الأمكنة مدة نمتّع النظر بتلك المشاهد الجميلة شاكرين الخلاّق الحكيم . وفارقناها ونحن نودّ عدم مفارقتها ، وكان معنا حضرة

الفاضل راجي بك مدير تلك الناحية فودّعناه شاكرين لطفه وكماله وأتينا على خيولنا إلى مدينة زحلة .

زحله

هي بلدة جيدة الهواء والماء قائمة على جانبي وادٍ بهج ونهر البردوني يمر في وسطها ، وموقعها في سهل البقاع على قرب من جبل لبنان ، وأهلها جميعهم مسيحيون موصوفون بالشجاعة والإقدام ، ويبلغ عددهم ١٤ ألف نفس وفيها سوق كبيرة وهي مركز تجارة لبلاد البقاع وجانب كبير من لبنان ، وفيها كثير من الكنائس والمدارس للذكور والإناث ويقصدها كثيرون من بيروت والشام حتى ومن برّ مصر لصرف أيام الصيف ، وماؤها عذب بارد جداً ولها كثير من الكروم . وجانب كبير من تجارتها بالعرق والحبوب . وتبعد عن شتورة ساعة على الراكب . وأهلها يحبون الفرح والانشراح ويكرمون ضيوفهم كثيراً . وقد لبثنا فيها مدة ودعينا إلى الطعام عند حضرة قائمقام البقاع في معلقة زحلة ولقينا من حضرته كل أنس وإكرام ، وتعرفنا هناك بجمهور من أفاضل القوم ثم خرجنا من هناك شاكرين حامدين . وبعد ذلك عدنا إلى بيروت ومنها إلى الاسكندرية فدمنهور .ولا نزال نتذكر لطف القوم وأنسهم مع المحبة والإكرام .

انتهى

ثبت أسماء الأعلام

على حروف هجاء الاسم

ثبت الاماكن والاسماء

على حروف هجاء الاسم

— ن —

— هـ —

محتويات الكتاب